لجنة الجيل الجديد

حياتي

قصة فتى من الريف

تأليف
أنطون تشيخوف

ترجمة
محمود الشنيطي

الناشر : مكتبة نهضة مصر بالفجالة تليفون ٥٠٨٢٧

أنطون تشيكوف

١٨٦٠ — ١٩٠٤

١٨٤١ — ينتمى أنطون تشيكوف إلى أسرة من الفلاحين الأقحاح . كان جده يجور تشيكوف من الرقيق فى مقاطعة ڤورونيش بروسيا الوسطى ، وقد استطاع بعمله الدائب أن يقتصد ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل فيشترى حرية أسرته سنة ١٨٤١ ، أى قبل إلغاء الرق بنحو عشرين عاما . وكانت الأسرة من ثمانية أفراد ، دفع عن الرأس خمسمائة روبل . وأعفيت ابنته ألكسندرا من الضريبة . ثم رحلت الأسرة من ڤورونيش إلى الجنوب .

وكان پاڤل تشيكوف — ابوه — كاتباً فى مدينة تاجنروج ، ثم افتتح دكان بدالة بعد أن تزوج يوجينيا موروزوف ، ابنة أحد تجار الأقمشة المحليين ، وكان لأسرة تشيكوف ابنة واحدة وخمسة أبناء : اسكندر ، ونيقولا ، وأنطون . وماريا . وإيڤان . وميشيل .

١٨٦٠ — ١٧ يناير . ولد أنطون فى تاجنروج . وإليك نسخة من وثيقة ميلاده ، مأخوذة من سجل كنيسة الكاتدرائية :

« ولد فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ ، وعمد فى ٢٧ يناير . أنطونيوس . ذكر . أبواه : پاڤل يجوروڤتش تشيكوف التاجر بتاجنروج وزوجته الشرعية يوجينيا باكوڤلفنا . كلاهما من الأرثوذكس . الشهود :

سبيريدون فيودوروف تيتوف أخو تاجر من تاجنروج ، وزوجة ديمترى كيريكوف سافيانو پولو التاجر بتاجنروج . »

١٨٦٧ — أرسله أبوه إلى المدرسة اليونانية بكنيسة الملك قسطنطين .

١٨٦٩ — يدخل أنطون مدرسة تاجنروج الابتدائية .

١٨٧٦ — ترحل الأسرة إلى موسكو بعد أن يصاب أبوه فى عمله بفشل ذريع ، وتحيا هناك فى عوز . يبقى أنطون فى تاجنروج ليتم دراسته فى المدرسة الابتدائية ، ويضطر كى يقيم أوده فى السنوات الثلاث الباقية إلى التدريس للتلاميذ .

١٨٧٩ — يجتاز أنطون امتحانه . يلحق بأسرته فى موسكو . يدخل كلية الطب بجامعة موسكو . يضطر إلى القيام بأمره وأمر أسرته . يبـــدأ فى الكتابة للصحف الهزلية .

١٨٨٠ — (رسالة من السيد ستيفان فلاديميروفتش إلى جاره المحترم الدكتور فريدريش .)

قصة تشيكوف الأولى. نشرها فى الصحيفة الهزلية « ستريكوزا ». وقد كتب تشيكوف فى السنوات السبع الأولى من حياته الأدبية أكثر من أربعمائة قصة ورواية وصورة ونقد وتعليق وخبر قضائى فى المجلات اليومية والأسبوعية بأسماء مستعارة .

١٨٨٤ — ينال إجازة الطب . يعمل فى الصيف طبيبا بمستشفى زمستڤو فى فوسكرنسك . يصيبه فى الشتاء بموسكو أول نزيف .

١٨٨٦ — يقضى عطلته الصيفية فى بابكينو ويتعرف إلى الحياة العسكرية . يتصل بسوڤورين محرر جريدة نوڤوى ڤريميا البطرجية ذات النفوذ . وإلى هذا الصديق الحميم سيبعث تشيكوف أمتع رسائله . لتشيكوف مجموعة رسائل تقع فى ستة مجلدات .

١٨٨٦ — يدعى إلى المساهمة فى تحرير نوڤوى ڤريميا ، فتتاح له فرصة العمل الجدى . (أغنية البجعة) مسرحية فى فصل واحد .

أبريل . الإصابة الثانية بالنزيف ، يقضى الصيف فى بابكينو .

١٨٨٧ — يقوم برحلة فى جنوب روسيا ، يصور آثارها فى نفسه فى (المروج) . (فى السحر) مجموعة من القصص ينشرها سوڤورين فى بطرسبرج . (إيڤانوف) مسرحية ذات أربعة فصول تمثل فى موسكو .

١٨٨٨ — يقضى الصيف فى لوكا بالأوكرين مع آل لنڤاريوف . (المروج) قصة رحلة . أقاصيص : (الأضواء ، حفلة عيد الميلاد ، الجميلات ، النوبة) . (الدب) مهزلة فى فصـــل واحد . تمنحه أكاديمية العلوم الإمبراطورية ببطرسبرج جائزة بوشكين : خمسمائة روبل . مجموعة أقاصيص ينشرها سوفورين ببطرسبرج .

١٨٨٩ — ينتخب عضواً فى جماعة محبى الأدب الروسى . (المارد الخشبى) ماساه فى أربعة فصول تمثل فى موسكو . (قصة مملة . من يوميات رجل شيخ) . (الخطبة) مهزلة فى فصل واحد .

١٨٩٠ — يقوم برحله عبر سيبريا الى جزيرة سخالين . يقوم وحده بدراسة احصائية فى معتقل المجرمين . (الممثل رغم أنفه) مهزلة فى فصل واحد . (الشياطين) قصة . (عبر سيبريا) أحاسيس . (جوزيف) قصة . يعود الى وطنه عن طريق سنغافورة والهند وسيلان وقنال السويس .

٢٣ ديسمبر « أنا أسعل ، وبقلبي خفقان . لست أدرى لهذا كله معنى . »

١٨٩١ — يقوم برحلة الى غرب أوربا : فينا ، وفلورنسا ، وروما ، ونابولى ،

وپاريس ، وينس الخ . (الهاربون فى سخالين) أحاسيس . (المبارزة) قصة طويلة . (النساء) قصه .

١٨٩٢ — يذهب الى مقاطعة نوفجورود للمعاونة فى اسعاف السكان الذين حلت بهم المجاعة . يؤسس منظمة لإمداد الفلاحين المعوزين بالماشية والخيول . يشترى حقلا فى قرية ميليخوفو فى مقاطعة سرپوخوف بثلاثة عشر ألف روبل ، وينتقل هو وأسرته كلها من موسكو الى الريف . يعين مراقبا طبيا فخريا لمقاطعته أثناء مكافحة وباء الكوليرا . « أنا أزور القرى جميعاً ، وألقى محاضرات ... » أقاصيص : (العنبر رقم ٦ ، الجنادب ، الزوجة ، فى المنفى ، الجيران .)

١٨٩٣ — « أنا أسعل . خفقان فى القلب . عسر هضم . وصداع ... » (فتاة الجوقة) قصة . (قصة رجل مجهول) قصة . (جزيرة سخالين) مذكرات من رحلة فى مجلة روسكايا ميزل الشهرية .

١٨٩٤ — فبراير : « سعالى يؤذينى ، وبخاصة فى الفجر . ليس هناك بعد شىء ذو بال »

مارس . ينصح له الأطباء بالإقامة فى القرم محافظة على صحته . ينصحون له بالذهاب الى جنوب فرنسا . أقاصيص : (الراهب الأسود ، مملكة النساء ، قصة رئيس الجنّانين)

١٨٩٥ — مارس : (المنزل ذو الشرفة) قصة — « كان لى حبيبة مرة ، وكان اسمها ميزيوس ، وعن هذه أكتب . »

أكتوبر : (النورس) ملهاة فى أربعة فصول . نوفمبر : (ثلاثة أعوام) قصة طويلة . أقاصيص : (قتل ، أربادن ، الزوجة) .

١٨٩٦ — يصاب بنزيف رئوى . النورس تمثل فى بطرسبرج . فشل تام . « لن

أنسى ليلة أمس ، لن أكتب مسرحيات بعد اليوم ، ولن أسمح بتمثيلها »
١٨٩٧ — يعمل بهمة فى مقاطعة سربوخوف فى الإحصاء العام للسكان . يبنى عدة مدارس أكثرها على نفقته فى قرى ميلو خوفو ، وتاليش ، ونوفوسيولكى . يصاب بنزيف رئوى مفـــاجىء أثناء غدائه مع سوفورين بمطعم فى موسكو . ينقل الى المستشفى . « يقول الأطباء انه السل ، ويأمرون بتغيير تام لنظام حياتى » . يذهب الى جنوب فرنسا يقضى الشتاء . (حياتى) قصة طويلة . أقاصيص : (الفلاحون ، فى « وطنى » ، فى العربة) .
١٨٩٨ — يظهر عناية فائقة بقضـــية دريفوس ، ويبدى سخطه على حملة نوقويا فريميا ضد دريفوس . من ثم قطيعته لسوفورين . يموت والده . يحل بالقرم هو وأسرته اطاعة لإلحاح الأطباء . يشترى قطعة أرض ويبنى منزلا قرب يالتا . تمثل مسرحية النورس بمسرح الفن بموسكو . تنال نجاحا هائلا . أقاصيص : (رجل فى علبه ، يونيتش ، الساكن ، الزوج ، الحبيبه) . « تمثل مسرحيى العم فانيا فى الأقاليم بنجاح كبير » .
١٨٩٩ — يبيع حقله فى مليوخوفو ، وينتقل مع أسرته إلى القرم . يبيع حقوق الطبع عن أعماله الماضية ، والآتية للناشر ماركس بيطرسبرج لقاء خمسة وسبعين ألف روبل . أقصوصتان (الســـيدة ذات الجرو . الكوخ الجديد) تمثل مسرحية العم فانيا على مسرح الفن بموسكو . (فى الوادى) قصة .
١٩٠٠ — ينتخب عضواً فى أكاديمية العلوم بيطرسبرج يبدأ (الشقيقات الثلاث) . مارس . تسوء حالته الصحية .
١٩٠١ — يتزوج من أولجا كنيبر وهى ممثلة بمسرح الفن بموسكو . تمثل قصة

الشقيقات الثلاث على مسرح الفن . (النساء) قصة .

١٩٠٢ — يستقيل تشيكوف من عضوية أكاديمية العلوم ، احتجاجاً على إلغاء السلطات لانتخاب مكسيم جوركى عضواً فيها . (القس) قصة .

١٩٠٣ — سبتمبر : « أنا أسعل ... أشعر بالضعف نوعاً ما . » أكتوبر : ينتخب رئيساً مؤقتاً لجمعية الأدب الروسى . (بستان الكرز) ملهاة فى أربعة فصول . (العروس) قصة .

١٩٠٤ — ١٧ يناير : تمثل بستان الكرز على مسرح الفن بموسكو . ٢٧ مايو : (أنا مريض منذ اليوم الثانى من مايو . ولم أغادر الفراش) ٣ يونيه : يذهب إلى بادن فيلر ، إحدى مدن الاستشفاء الألمانية ومعه زوجته .
٢ يوليو : يقضى نحبه فى بادن فيلر ، يدفن فى مقبره دير نوفوديفيشى بموسكو .

— ١ —

قال لى المدير :

— إنى أحتفظ بك احتراما لأبيك الفاضل . وإلا لطرت عنا من زمن طويل .

قلت :

— إنك حسن الظن بقدرتى يا سيدى .

فسمعته يقول :

— أبعدوا هذا الفتى ؛ إنه يرهق أعصابى .

وبعد يومين طردت .

كنت قد غيَّرت عملى تسع مرات منذ كبرت . وسبَّب ذلك الأسف العميق لأبى ، مهندس البلدية . كنت أنتقل من إدارة إلى أخرى . ولكنها جميعاً كانت سواء ، مثل قطرتى الماء . أجلس وأكتب ، وأَصغى إلى ملاحظات فارغة جافة ، وأَنتظر حتى أُطرد .

كان أبى جالساً على مقعده ، مغمض العينين ، حين أخبرته . وكان وجهه يحكى وجه ضارب أرغن كاثوليكى شيخ ، فهو نحيل جاف له زرقة لون المامة حيث يحلِقُه — كان وجهه يعبر عن استسلام هادىء . قال دون أن يرد السلام أو يفتح عينيه :

— لو كانت زوجتى العزيزة ، أمك ، حيّة لحزنَتْ لحياتك حزناً متصلا . إنى لأرى للعناية يداً فى موتها قبل حينها . ثم فتح عينيه وقال :

— قل لى أيها الفتى التعس ماذا أفعل بك ؟ .

حين كنت أصغر مما أنا الآن كان أهلى وأصدقائى يعرفون ماذا يفعلون بى ؛ نصحنى بعضهم أن أتطوع فى الجيش ، ونصحنى آخرون بأن أمتهن الصيدلة ، وآخرون بأن أشتغل بالبرق ، ولكنى الآن وقد بلغت الرابعة والعشرين ودبّ الشيب فى صدغىّ ، وجرّبت الجيش والصيدلة والبرق ، واستغرقت الفرص جميعاً ، لم يعودوا ينصحونى بل أصبحوا يهزون رءوسهم فى حسرة .

مضى أبى يقول :

— ماذا تظن بنفسك ؟ إن غيرك فى مثل سنك لهم فى المجتمع مكانة طيبة . وانظر من أنت : شحاذ ، بليد ، فظّ ، يعيش على نفقة أبيه .

ومضى كعادته يرمى شباب هذه الأيام بأنهم لا أمل فيهم ، قد قضى عليهم الغرور ، والماديّة ، والإلحاد . ويحمل على حفلات الهواة التمثيلية لانها تشغل الشباب عن دينهم وواجباتهم .

— سنذهب معاً فى الغد فتعتذر للمدير وتعده بأن تعمل فى المستقبل بوحى ضميرك .

وختم كلامه بقوله :

— لا ينبغى أن تظل يوماً واحداً دون أن يكون لك مركز اجتماعى ما .

قلت مغتما وكنت لا أنتظر نتيجة من هذا الحوار كله :

— إن ما تسميه «المكانة الاجتماعية» شيء مُيَسّر لأصحاب رأس المال والعلم ، أما الفقراء الجهّال فينبغي أن يحصلوا على قوتهم بالعمل اليدويّ الشاق . ولا أجد ما يدعو أن أشذّ عن ذلك .

قال أبي محتدًا :

— إنك حين تبدأ فى الحديث عن العمل اليدويّ يبدو كلامك عاميًا ساذجاً . ألا تستطيع أن تدرك أيها الجاهل الأحمق إلى جانب العمل اليدويّ عبقرية إلهية — شعلة مقدسة تضعك فى مستوى أعلى من الحمار والزواحف ، وتقربك من الله . إن خير البريّة هم أولئك الذين كافحوا ليُبقوا تلك النار مشتعلة آلاف السنين . إن جدّك بولوزنيف Polozniev كان جنرالا حارب فى بُورُودينو ؛ وكان جدك الأكبر شاعراً وخطيباً وزعيماً للنبلاء ، وكان عمك معلّما ، وأخيراً — وليس آخراً — فأبوك مهندس . أترى آل بولوزنيف قد أسلموا إليك هذه الشعلة متوهجة لتخمد فى يديك ؟

قلت :

— لتكن عادلا ، إن ملايين من الناس يعيشون على العمل اليدويّ .

— وماذا فى ذلك ؟ دعهم . إنهم لا يصلحون لشيء آخر . العمل اليدوى فى وسع كل مخلوق حتى المتشردين ، والبُلْه ، والمجانين والمجرمين .

هذا العمل وقف على العبيد والبرابرة أما الصفوة المختارة منّا فقد منحت الشعلة المقدسة .

كان من العبث أن أستمر فى الجدل . فقد كان أبى يحبّ سماع صوته . ولم يكن يقنعه غير آرائه ، ثم إن موقفه من العمل اليدوىّ لم يكن لإكباره الشعلة المقـــدسة بقدر ما كان لخوفه من أن أغدو أضحوكة المدينة حين أصبح عاملا . فأندادى قد أنهوا دراساتهم من بعيد ، وبدأوا يشغلون مراكز مرموقة . فابن مدير بنك الدولة قد أصبح عضواً فى إدارة الضرائب ، بينما أنا — وحيد أسرتى — لاشىء .

كان الأخذ فى هذا الحوار لايجدى ، بل كان فى الواقع بغيضـا ، ولـكننى بقيت جالسا أعارض أبى معارضة ضعيفة آملا أنه قد يفهمنى . وكان الأمر جليا بسيطا لا يعدو أن يتناول طريق حصولى على القوت ولـكن أبى لم يدرك هذا . بل أخذ يحدثنى عن بورودينو ، والشعلة المقدسة . وعن عمىّ ، وعن الشاعر المنسىّ الذى نظم منذ أمد بعيـد شعرا رخيصا أجوف . ويدعونى بالأبله الجاهل الأحمق دون أن يفهمنى وكنت برغم هذا كله مخلصا فى حبى لأبى وأختى . نشأت منذ الطفولة على أن أستطلع رأيهما فيما يعرض لى . وكنت — محقـــا أو مخطئا — أخشى دائما أن أزعجهما . وكان يرعبنى أن أغضب أبى فأراه يمتلىء عنقه بالدم أو يصاب بصدمة .

عدت أقول :

— إن جلوس رجل فى مثل سنى يكتب وينسخ ويصارع آلة كاتبة ، شيء مخجل وضيع . ولا شك أن لا حاجة بذلك كله إلى شعلة مقدسة ؟

قال أبى :

مهما تقل فهذا عمل فكرى . كفاك . لندع هذا الحديث . ولكنى أحذرك . إنك إن رفضت أن تعود إلى عملك وآثرت اتباع أهوائك الحقيرة ، فإننا سنحرمك — أنا وأختك — من عطفنا وسأخرجك من الميراث — أقسم بعزة الله أن أفعل !

— إن أمر الميراث لا يعنينى فى شيء : إنى أنزل مقدما عن كل شيء .

قلت هذا بصراحة تامة . ولم أكن أقدر أن قولى يثير حنق أبى فاستشاط غضبا وصاح فى صوت زائر حاد :

— كيف تجرؤ أن تخاطبنى بمثل هذا أيها الأبله . إنك تنسى نفسك يا وغد .

وصفعنى على وجهى بحركة صقلتها العادة مرة ثم مرة . فلم أدر ما أصنع . خلتنى ما زلت طفلا أتلقى الضربات كما كنت أفعل فى صغرى وأنا واقف كالجندى ، وعيناى فى وجهه . فوقفت جامدا وحاولت أن أثبت بصرى فى عينيه . وكان أبى شيخا ناحلا جدا ولكن لا شك أن عضلاته كانت قوية كالسياط ، فان ضرباته كانت شديدة الإيلام .

تنحيّت نحو الردهة ولـكنه انتزع مظلته ، وضربني على رأسي وَكتفيّ عدة ضربات . وبدت أختي عند باب الثّويّ لترى سبب الضجة ولـكنها أسرعت خائفـــة وهي تنظر إليّ في عطف دون أن تشفع لي بكلمة .

ظلّ عزمي ثابتا على ترك المـكتب والأخذ في نوع آخر من العمل . وكنت شديد الأيْد صالحا لأقصى إرهاق جسديّ ، فكان أمر العمل سهلا ، وإن كان تعيينه أهمّ ما يواجهني . كان أمامي حياة العامل الرتيبة والجوع ، في بيئة قذرة جافية ، يرين عليها التفكير في كسب قوتهـا اليومي . ومن يدري لعليّ في عودتي من العمل ، وأنا أذرع شارع الأعيان الكبير أن أنظر بحسرة إلى المهندس دولشيكوف الذي كان يؤدي عملا فكريا . فقد مرّ عليّ وقت كنت أحلم فيه بنشاط فكريّ فتصورت نفسي معلما أو طبيبا أو كاتبا ؛ ولـكنّ تلك الأحلام بقيت أحلاما . وكنت شغوفا بالمسرح والقراءة وَلـكني لم أكن أثق بمقدرتي على العمل الفـكري . وكنت في المدرسة أكره اللغة اليونانية فاضطر أبي أن يخرجني من السنة الرابعة ، وجعل المعلمون يترددون على المنزل وقتا طويلا ليعدوني للسنة الخامسة . ثم اشتغلت في مكاتب حكومية مختلفة ، لا أكاد أعمل شيئا ، وإن قيل لي إنّ ذلك عمل فـكري . ولم يكن عملي في المدرسة ، أو المـكاتب يحتاج إلى جهد ذهني ، أو ذكاء أو استعداد خاص . كان آليا خالصا لا يقتضي ابتـكارا . وهذا النوع من العمل الفـكري

أقل عندى من العمل اليدوى . أنا أحتقر مثل ذلك العمل وأرفض أن يكون مسوغا لحياة الفراغ والبلادة التي يحياها أهله . فليس ذلك العمل فى الحق إلا غشًا هو أحد مظاهر تلك البلادة . أما العمل الفكرىّ حقاً فلست أعرف له معنى . أو ما يمكن أن يكون كذلك .

بدأ الظلام يهبط . وكنا نقطن فى شارع الأعيـــــان الكبير . الشارع الرئيسىّ في المدينة . ومتنزّه عِلْية القوم لأن المدينة كانت خلواً من حدائق عامة . كان الطريق ساحراً قد غرست على جانبيْه أشجار الحور ذات الرائحة الطيبة وخاصة غبّ المطر . وقد تدلت على أسوار المنازل أغصان الطّلْح والكرْزِ والتفاح .

فإذا كان المساء فى أيّار كان للخضرة الظليلة ، وعبير الزنبق ، وطنين الحشرات . والهدوء والدفء — كان لذلك كله جدّة وروعة لا يغضّ منها أنّ الربيع يأتى كلّ عام . كنت أقف عند الباب أرقب المارّة . وكان أكثرهم من لداتي نشأنا ولعبنا معاً ، ولكنّ وجودى الآن يزعجهم ، فملابسى متواضعة عتيقة الطراز ، بسروالىَّ الضيِّقين الغاية ، وحذائىَّ الكبيرين اليابسين ، فكأن السروال والحذاء عود من (المكرونى) منصوب على مركب . ثم إني فيما يظهر ، لم أكن محبوباً فى المدينة ، فليس لى فى المجتمع مكانة ، وأنا أغشى المقاهى الرخيصة ألعب (البليارد) ، وقد شوهدت مرتين يقودنى شرطىّ ، وإنْ لم يكن لى ذنبٌ فى المرتين .

كان المساء يهبط . وقد بدأت النجوم تلمع فى السماء . وأخذت نغمات البيان تنبعث من منزل المهندس دولشكوف الكبير . وقد رأيت أبى ماراً فى بطء يتبادل التحية مع بعض الناس فى طريقه . وذراعه فى ذراع أختى . وهو يرتدى قبعته العالية العتيقة ذات الأحرف المطوية إلى أعلى.

— أنظرى .

قالها أبى لأختى وهو يشير إلى السماء بالمظلة التى ضربنى بها .

— أنظرى إلى السماء . إن هذه النجوم ، حتى أصغرها كلٌّ منها يمثّل عالما . يا لضآلة الإنسان إذا قورن بالكون !

قال هذا كأنما يستمتع بحقارته ، وكأن الفكرة قد أعجبته . وازدهته. إنه كان حقاً عاريا عن كل ذكاء أو خيال . وكان — ويا للأسف — المهندس الوحيد فى المدينة طوال الخمسة عشر عاماً أو العشرين الماضية . ولا أذكر أنه بُنِىَ خلالهـا منزل جميل واحد فى المدينة . كان من دأبه حين يرسم منزلا . أن يبدأ برسم الردهة ، والنوىّ . وكما كان من عادة فتيات المدارس قديماً أن يبدأن الرقص إلى جانب المدفأة . كان من عادته هو أن يبدأ تفننه من الردهة والنوىّ ، ثم يضيف إليها غرف المائدة والأطفال والتدخين ؛ ويصل بينها بأبواب . فتكون النتيجة أن تصبح الغرف جميعاً طرقاً للمرور ، وفى كل غرفة بابان أو ثلاثة . ولم يكن وراء ذلك فكرة واضحة بل كان التصميم كله مختلطا مبهماً . ثم كأنما شعر بقصور تصميمه فأخذ يضيف إليه إضافات مختلفة حيناً بعد حين. وإنى لأستطيع

أن أتمثل الآن تلك الجدران الحقيرة الضئيلة ، والممرات الضيّقة الصغيرة والدرج المعوّج ، ينتهي إلى عَلِيّة لا تنصب فيها القامة مثل حمام روسي به سلم ضيقة تشغل فراغ الغرفة ، أما المطبخ ففي أسفل. أرضه من الحجر وسقفه معقود . وأما واجهة المنزل فعابسة خشنة ، والسقف مسطح عليه مداخن غليظة مُدَمْلجة ذات فلانس سود من الحديد المشبك تصرّ عليها ديوك الريح .

كل هـذه المنازل المتشابهة التي بناها والدي كانت تذكرني بقبعته العالية وعنقه الجامد القصير . ولكن المدينة اعتادت عمل أبي الذي لا يدل على موهبة . فغدا الآن طرازها الشائع في البناء .

وقد أدخل أبي هذا الأسلوب في حيـاة أختي . فهو أولا قد سماها كلوباترا كما سماني ميشيل . ونشّـأها على الفزع من أقاصيص كان يحكيها لها عن النجوم والحكماء القدامى وعن أجدادنا ، وكان يفيض لها في شرح معنى الحياة ، أو يحاضرها في معنى الواجب . ولا يزال يفعل ذلك الآن وقد بلغت السادسة والعشرين . فهو لا يسمح لها أن تمشي وذراعها في ذراع غيره ، وهو يوهم نفسه لسبب ما أن سيأتي يوم يتزوجها فيه فتى جميل تقديرا منه لشخص أبيها ومواهبه . أما عن أختي فهي تجلّ أباها وتخشاه ، وتؤمن بأفكاره الغريبة .

أخذ الطريق يخلو كلما تقدم المساء . وكفت الموسيقى من المنزل المقابل . ثم فتحت الأبواب ، وظهرت في الطريق عجلة (ترويكا) ترن

أجراسها الصغيرة رنيناً عذبا . كان ذلك وقت خروج المهندس وفتاته للنزهة . أما أنا فكان ذلك وقت ذهابى الى الفراش !

كانت لى فى المنزل غرفة ولكنى كنت أوثر أن أقيم فى كوخ بالفناء الى جانب بَنِيَّه أقيمت منذ زمن لحفظ السروج ، ولازالت فيها المسامير الكبيرة التى تعلق عليها . ولكنها أهملت الآن ، وجعلها أبى مثوى لمجموعة من جرائد الثلاثين عاماً الفائتة . وقد جعلها أبي مجلدات يحوى كل مجلد أعداد أشهر ستة . ولم يكن يسمح لأحد أن يقربها . وكانت إقامتى هناك تجنبنى لقاء أبى وضيوفه . ثم كان ذلك ينحّى عنى شيئاً من الخزى الذى يسببّه قول أبى إنى أعيش على نفقته . فأنا لا أشغل غرفة فى البيت . ولا أتناول وجبات الطعام كلها هناك .

كانت أختى تنتظرنى وقد جلبت لى خفية شيئاً من طعام . شريحة من لحم البقر . وكسرة من الخبز . فطعامنا فى المنزل لم يكن جيداً . وكانت أختى تقتصر وسعها فى النفقات . مستهدية بعبارات يكثر ترددها فى الدار من نحو « المال يحب التدبير » و « الكوبك على الكوبك روبل » .

وضعت أختى الطبق على النضد . وجلست على سريرى وبدأت تبكى . قالت :

— ميشيل . ماذا تفعل بنا ؟

لم تخف وجهها بل تركت دموعها تسيل على يديها وصدرها ، وقد

بدا عليها شقاء محيق . ثم غلبها البكاء فدفنت وجهها فى الوسادة وأخذ جسمها كله يختلج بالنشيج . قالت :

— أتركت عملك مرة أخرى ؟ يا للبلاء !

قلت وقد ضقت بدموعها :

— أرجو أن تفهمى يا أختاه .

وهنا شحّ الزيت فى مصباحى ، كأنما قصد إلى ذلك قصدا . وأخذ الدخان ينبعث من المصباح يكاد يخبيه . وبدت المسامير العتيقة فى الحائط تتراقص ظلالها على الضوء الخابي ، كأنها أشباح تتوعَّد .

نهضت أختى تقول :

— ارحمنا . إن أبانا يتعذب وقد أمرضنى الأسى وكدت أجن .

ثم زادت ناشجة ضارعة :

— ماذا سيكون منك ؟ ارجع إلى المكتب . أتوسل إليك بذكرى أمك .

قلت وأنا أحسّ أنى أتخاذل لو استمرت :

— هذا محال يا كاوباترا . لا أستطيع . لا أستطيع .

قالت فى إصرار :

— ولكن لماذا ؟ لمَ لا تعود ؟ إن كنت لا تستطيع العمل مع رئيسك هذا فابحث عن عمل آخر . لم لا تبحث عن مكان فى السكة

الحديدية ؟ لقد تحدثت الآن مع أنيوتا بلاجوفو وكانت واثقة من أنهم سيجدون لك عملا . بل إنها وعدت بأن تتكلم من أجلك . فكر بالله يا ميشيل ، فكر فى ذلك . أرجوك .

تحدثنا قليلا بعد ذلك . وقبلت أخيرا . وقلت إنى لم أجرب بعد العمل فى خط حديدى منشأ حديثاً ، ولا أجد بأساً من التجربة . فابتسمت من خلال دموعها فى سعادة وصافحتنى ، وهى لا تقدر أن تكف دموعها . ثم ذهبت إلى المطبخ أجاب شيئاً من الزيت .

— ٢ —

عُرفَ آل أشوجين بأنهم أكثر أهل المدينة عطفاً على حفلات الهواة التمثيلية ، والموسيقية ، واللوحات الحية ، التى تقام لأغراض خيرية . وكانوا ينزلون عن منزلهم الذي يملكونه فى شارع الأعيـــان الكبير للقائمين بها ، ويقومون بمهام الإعداد لها والانفاق عليها . كان هؤلاء الملاك الأثرياء يملكون قرابة ثلاثة آلاف فدان فى المقاطعة ، ومنزلا فخما فى الريف ؛ ولكنهم لم يكونوا يحبون حياة الريف بل يقضون فى المدينة الشتاء والصيف .

كانت السيدة أشوجين طويلة تميل إلى النحول ، رفيقة المظهر . سعرها قصير مقصوص . تلبس صدارا قصيرا وثوبا انجليزيا بسيطا . والأسرة من بعدُ شقيقات ثلاث لا تدعى الواحدة منهن باسمها بل بالكبرى والوسطى والصغرى . كن قبيحات بارزات الذقون . قصار

النظر . مقوسات الظهور . وكن يلبسن مثل أمهن . وكانت بهن جميعاً لثغة قبيحة . وهن مع ذلك يشاركن فى كل حفلة ويساهمن فى كل عمل خيرى . فيمثلن ويغنين وينشدن . وكن ذوات جدّ لا يبسمن ولا يبدو عليهن شيء من المرح حتى حين يغنين فى ملهاة موسيقية . كان ذلك كله نوعا من العمل يؤدينه فى انهماك كاتب الحسابات .

كنت مغرماً بهذه الحفلات ، وخاصة ما كان منها للتجربة وهو كثير ، تغلب عليه الفوضى والجلبة . وكنا نتناول العشاء دائما بعد الفراغ . ولم أكن أشارك فى انتقاء القصص أو توزيع أدوارها فقد كان عملى وراء الستار : ارسم المناظر ، وأنسخ الأدوار ، وألقن . وأصنع المكياج ، وأقوم بالمؤثرات المسرحية فأرتجل صوت العاصفة أو البلبل إلى غير ذلك . وكنت أثناء التجارب أنفرد بنفسى فى الظلام وراء المسرح وألزم الصمت ، فقد كانت ملابسى متواضعة ولم يكن لى فى المجتمع مكانة . وكنت أعدّ الرسوم فى اصطبل بيت أشوجن أو فى الفناء ، يعيننى فى ذلك أندريه إفانوفيتش النقاش ، أو مقاول الزخرفة كما كان يسمّى نفسه . وهو رجل قد قارب الخمسين طويل نحيل ، شاحب . ضاوى الصدر . غائر الصدغين ، تحيط بعينيه هالة داكنة . كان يبدو كالشبح ، ويعانى مرضاً مُتْلِفاً يقف به عند حافة القبر ، ويُقعده زمناً ثم ينهض معافى فيقول :

— لقد نجوت مرة أخرى .

كانوا يسمّونه فى المدينة راديش . ويقولون إن ذلك اسمه الحقيق . وكان مولعاً مثلى بالمسرح ، فإذا ترامى إليه أنّ هناك تفكيراً فى إخراج قصة ترك ما لديه من عمل وجرى إلى بيت أشوجن ليرسم المناظر .

قضيت اليوم التالى لحديثى مع أختى أعمل فى بيت أشوجن من الصباح إلى المساء . وكانت السابعة موعد التجربة ، وقد اجتمع الممثلون جميعاً فى التوىّ قبلها بساعة . وكانت الكبرى والوسطى والصغرى يذرعن المسرح وفى أيديهن نسخ الأدوار . وقد وقف راديش فى سترته الأرجوانية الطويلة ، ووشاحه حول عنقه يرقب المسرح فى اهتمام وقد اعتمد برأسه إلى الحائط .

كانت السيدة أشوجن تتنقّل بين أضيافها ، وكان لكل منهم عندها كلمة طيبة . كانت تنظر فى وجه محدّثها ، وتتكلم فى همس كأنها تلقى إليك بسرٍّ . قالت فى لطف وهى تدنو منّى :

— إن رسم الناظر صعب لا شك . لقد كنت أناقش السيدة موفكه فى الاعتقاد بالخرافات حين رأيتك مقبلا . يا إلهى ، لقد تحدّيت الخرافة طول حياتى ؛ فأنا أوقد ثلاث شمعات معاً . وأبدأ كل عمل هام في اليوم الثالث عشر ؛ حتى أبين لخدمى فساد مخاوفهم .

ودخلت ابنة المهندس دولشيكوف وهى فتاة شقراء سمينة مليحة تلبس ملابس باريسية — كما يقال — من الفرع إلى القدم . لم تكن

تمثل ولـكنها كانت تجلس دائما على المسرح . ولم يكن يبدأ التمثيل حتى تأخذ مكانها بالصف الأول وقد سحرت الجميع بملابسها الرائعة .

كانت فتاة من العاصمة . فكان لها أن تنقدنا أثناء التجارب وقد اعتادت أن تفعل ذلك بالبسمة الساحرة ، والكلمة الرقيقة . ولم يغب عن أحد أنها كانت تنظر إلى حفلاتنا نظرتها إلى لعب الأطفال . وقد قيل إنها تعلمت الغناء فى معهد بطرسبرج ، وغنّت مع فرقة خاصة بالأوبرا طوال الشتاء . كان تأثيرها علىَّ كبيراً فلم أكن أرفع عينىَّ عنها طوال التجارب أو الحفلات .

ظهرت أختى غير متوقَّعة حين تناولت نسختى وأوشكت أن أبدأ بالتلقين . وجاءت إلىَّ دون أن تنزع قبعتها أو معطفها وقالت :

— أرجو أن تتبعنى .

تبعتها وعند الباب الخلفى للمسرح وجدت أنيوتا بلاجوفو بقبعتها وقناعها القاتم . وهى ابنة وكيل المحكمة فى بلدنا منذ زمن بعيد بل منذ أقيمت المحكمة العليا . كانت فارعة الطول ، جميلة القوام ، فكان من الطبيعى أن تشترك فى التابلوات الحيَّة ولـكنها كان يحمر وجهها حين تقبل أن تمثل دور ملاك أو إلهة . وكانت لا تشترك فى التمثيل ، ولا تدخل القاعة ، ولا تحضر فى التجارب إلا لأمر هام . فلما رأيتها أدركت أنها أتت لتمكث فترة وجيزة . قالت فى حياء دون أن تنظر إلى ،وفى شىء من الخشونة :

— كان أبى يتحدث عنك . وقد وعده دولشيكوف بعمل فى الخط الحديدى . فاذهب اليه غدا وستجده فى المنزل . فانحنيت لها شاكراً ما تجشمته من أجلى . ثم قالت مشيرة الى النسخة التى في يدى :

— وتستطيع أيضاً أن تترك هذا . ثم ذهبت هى وأختى الى السيدة أشوجن وتهامسن لحظة وهن ينظرن الىّ . كان حديثهن لاشك عنى . ثم جاءت الىّ السيدة أشوجن وقالت وهى تنظر فى عينى :

— حقاً . اذا كان وجودك هنا يشغلك عن عملك وجب أن تترك الأمر لغيرك . اذهب الآن يا صديقى فى حفظ الله .

سلّمت وخرجت وأنا مضطرب . فرأيت أينوتا وأختى تغادران المنزل حين كنت أهبط الدرج . وكانتا تتحدثان باهتمام عن شىء ما لعله عملى بالخط . وانصرفتا مسرعتين .

لم تكن أختى تحضر التجارب . وأكبر الظن أنها شعرت بشىء من تأنيب الضمير لحضورها . وخشيت أن يعلم أبى بذهابها الى بيت أشوجن فيغضب لأنها لم تستأذنه .

فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى ذهبت لأرى دولشيكوف. فأدخلت الى غرفة أنيقة هى غرفة الاستقبال والمكتب معاً . وكان كل ما فيها لطيفاً أنيقاً . ولكنه يبدو غريباً لرجل مثلى لم يتعوده . كان هناك سجاد نفيس ، وكراسى كبيرة ، وتماثيل برونزية ، وصور فى أطر مذهبة أو مخملية ، ورسوم لنساء جميلات صباح الوجوه فى

أوضاع رائعة . وكان هناك باب يفتح على الشرفة التي تفضي الى الحديقة تظهر منـــــه شجيرات الزنبق ومائدة تحمل طعام الافطار عليها عدة زجاجات وطاقة من الورد . وكان يشيع في الهواء عبير الربيع ودخان السيجار الجيد — جو من السعادة يوحى بأن هذه غرفة رجل قد ناضل وحصل على كل ما يمكن أن يصل اليه الانسان من السعادة في هـذه الدنيا . وكانت فتاة المهندس جالسة تقرأ جريدة . سألت :

- أتريد أبي ؟ إنه لن يغيب طويلا فهو في الحمـــــام يبترد . تفضل فاجلس .

فجلست . قالت بعد سكتة :

— إنك تقيم في المنزل المقابل فيما أظن .

— أجل .

قالت :

— إنني أقف إلى جانب النافذة كل يوم — فأنا كثيرة الملل — وكثيراً ما أراك أنت وأختك . إنها تبدو دائما رفيقة رزينة .

هنا دخل دولشيكوف . وهو يمسح عنقه بمنشفة . فقالت ابنته :

— أبي . هذا هو السيد بولوزنيف .

— أجـل . أجل أنا أعلم . فقد حدثني بلاجوفو عنـه — قال هذا ملتفتاً الى دون أن يصافحني — ولـكن ماذا أستطيع أن أقدم اليك ؟ أي عمل ؟ إنـكم أيها السيدات والسادة قوم ذوو غرابة .

ثم أضاف رافعاً صوته كأنه يؤنبني :

— إني أقابل عشرين شخصاً يا سيدى كل يوم . وكلهم يظن أنى أدير مكتباً للسكة الحديدية لاخطا . أنا استخدم رجالا للعمل الشاق : أستخدم حدادين وفعلة ونجارين وحافرى آبار . ولكنكم جميعاً كتبة !

تنسمت حوله ريح السعادة التى لاحظتها فى أثاث الغرفة . فهو قوى البنية صحيح البدن ، أحمر الخدين ، عريض المنكبين ، يبدو نظيفاً فى ثوبه القطنى وسراويله الواسعة مثل سائق زلاجة فى لعبة من الصينى . وكانت له لحية طويلة مستديرة ليس بها شعرة بيضاء . وأنف معقوف قليلا . وعينان سوداوان لامعتان . قال :

— أى عمل تستطيع أن تؤدى؟ ليس هناك ما يمكن أن تقوم به إنى مهندس ميسر الحال . ولكنى شققت طريقى بالعمل الشاق . وقد كنت عاملا عادياً ، واستغلت وقاداً في بلجيكا . ففكر لنفسك أيها الفتى ماذا يمكن أن أقدم اليك . قلت مؤمناً وأنا لا أقوى على تحديق عينيه اللامعتين الصافيتين :

— إنك على حق فيما تقول .

قال بعد برهة .

— هل تستطيع العمل فى البرق ؟

— أجل ، فقد اشتغلت به .

— حسناً . سنرى . اذهب إلى دوبشنيا . إن لنا هناك رجلا واحداً، ولكنه رجل لا خير فيه .

سألت :

— وماذا أعمل ؟

— ستعلم ذلك هناك . اذهب أنت وسأبعث بتعليماتي . ولكني أحذرك من شيء : إياك والشراب . ولا تثقل عليّ بالتماس وإلا طردتك

قال ذلك وانصرف عني دون تحية . فانحنيت له ولابنته التي ظلت تقرأ . وخرجت كسيفا حتى أن أختي حين سألتني كيف قابلني المهندس ، لم أقو على النطق بكلمة .

صحوت مع الفجر في اليوم التالي لأذهب الى دوبشينا . ولم يكن أحد من سكان شارع الأعيان الكبير قد صحا بعد . فليس في الطريق نأمة . وكان وقع خطواتي ثقيلا موحشا . وأشجار الحور الندية بذوب الثلج تشيع في الهواء عطرها اللطيف . كنت حزينا . لا أجد رغبة في ترك المدينة التي أحبها وأجدها جميلة دافئة . وأحب أشجارها المورقة، وصباحها المشمس الهادىء . وأجراسها الرنانة ، ولكني أرى ناسها الذين أعيش معهم يبعثون فيّ الضجر . هم غرباء عني . بل هم يثيرون فيّ التقزز أحياناً . لم أكن أحبهم ولا أفهمهم .

لم أستطع أن أدرك كيف ولأية غاية كان يعيش هؤلاء الخمسة والثلاثون ألفاً من الناس . كنت أعرف أن أهل كمري يتعيشون من

صنع الأحذية . وأن أهل تولا يصنعون السماورات والمدافع وأن أودسا ميناء . ولكن لم أكن لأدرك كنه مدينتي والغاية من وجودها . كان الناس في شارع الأعيان الكبير وفي طريقين أنيقين آخرين يعيشون على ريع رءوس أموالهم أو على مرتبات وظائف يتناولونها من خزانة الدولة . ولكن السر الذي لم أستطع أن أكتنهه هو المورد الذي كان يعيش عليه القوم الذين يسكنون ثمانية شوارع أخرى تسير متوازية قرابة ثلاثة الأميال ثم تختفي وراء التل . على أني أخجل أن أتصور الحياة التي كان يحياها سكان المدينة . لم يكن هناك حدائق أو مسرح أو فرقة موسيقية محترمة . ولم يكن يزور مكتبة المدينة وناديها سوى شباب اليهود فكانت المجلات الأسبوعية والكتب تظل أشهرا طويلة دون أن تفض . بل إن الذين أحسست تنشئتهم من أغنياء ومثقفين كانوا ينامون في غرف صغيرة عفنة ، على أسرة خشبية يسرح فيها البق . ويجعلون لأطفالهم غرفاً قذرة يسمونها مهادا . أما الخدم فينامون على بلاط المطبخ تغطيهم الأسمال وإن أصبحوا بعد طول الخدمة أفراداً في الأسرة . كانت رائحة البورتش تنبعث من المنازل غالباً ، أما في صيام الأربعين فرائحة السمك المقلي بزيت عباد الشمس . فليس لطعامهم مذاق والماء الذي يشربونه فاسد . كانوا دائماً يتحدثون في الدوما وفي بيت الحاكم وعند الأسقف عن حاجة المدينة إلى مورد للماء النقي الرخيص ، وعن اقتراض مائتي الف روبل من الخزانة لذلك . وكان في المدينة ما يقرب من ثلاثين

سريا قد يفقدون فى لعب الورق ضياعاً بأسرها ، ولكنهم يشربون ذلك الماء الفاسد ، ويقضون حياتهم فى الحديث عن ذلك القرض . وكان من اليسير جداً أن يقوموا هم بدفع المال من جيوبهم ولكن منطقهم شيء لم أستطع أن أفهمه .

ولم أكن أعرف فى المدينة رجلا واحداً شريفاً . كان أبى يرتشى ، ويعد الرشا نوعا من التقدير لمواهبه . وكان الطلاب فى المدارس الثانوية يسكنون مع معلميهم ويدفعون لقاء معاشهم أجوراً باهظة فينتقلون من سنة إلى أخرى . وكانت امرأة قائد الكتيبة المحلية تقبل الرشا والمشروبات من الجندين أثناء خدمتهم الاجبارية . وقد سكرت مرة حتى أنها لم تستطع أن تنهض على قدميها وهى راكعة فى الكنيسة . والأطباء أيضاً كانوا يرتشون من المقترعين . وكان لأطباء البلدية والبيطريين جعل على الجزارين وأصحاب المقاهى وكانت الشهادات الطبية التى يتقدم بها حاملوها إلى مكتب الحكومة تباع فى مدرسة المقاطعة . وكان كبار رجال الكنيسة يسطون على من دونهم وهؤلاء يبتزون وكلاءهم . وكان كل صاحب حاجة فى البلدية يجد وراءه من رجال الصحة أو غيرهم من يصيح به (أين الحلوان ؟) فيعود اليه يناوله ثلاثين كوبكا أو أربعين . أما هؤلاء الذين لم يعرفوا الرشوة كالموظفين الكبار فى المحكمة العليا فكانوا متكبرين لا يصافحونك إلا بأصبعين ؛ وهم قساة ، عقولهم ضيقة ، يلعبون الورق ويسرفون فى الشراب ويتزوجون

من نساء موسرات ، ويضربون لمن حولهم أسوأ الأمثال .

كانت الفتيات وحدهن يتمتعن بشيء من النضارة ونقاء الخلق . يؤمن أكثرهن بمثل عليا ، وقلوبهن نقية شريفة . ولكنهن كن يجهلن الحياة . ويرين في الرشا دليلا على التقدير للمواهب النفسية . واذا تزوجن أصابهن الهرم وقضى عليهن وانزلقن فى أوحال الحياة البورجوازية الخسيسة إلى آخر العمر .

— ٣ —

كان هناك خط حديدى ينشأ بجوار المدينة ، وفي أمسيات الأعياد كانت الشوارع تكتظ بجموع من الأوباش . يسميهم أهل المدينة « الفعلة » ويخشاهم الجميع . ولم يكن غريبا أن ترى رجلا من لابسى الأسمال هؤلاء يساق الى المخفر دون قبعة وقد تلوث وجهه بالدم . وقد حمل الناس وراءه سماورا أو ثوباً حديث الغسل يشهد بما اقترف من جرم . كان « الفعلة » يحتشدون حول الفنادق وفى السوق يتناولون من الطعام والشراب القليل الخفير . وكان فى أفواههم بذاءة ، فاذا مرت امرأة مريبة حيوها بصفير عال . وكان أصحاب الحوانيت حين يريدون تلهية ذلك الحشد الجائع الرث يسقون قطاً أو كلباً شيئاً من الفودكا . أو يربطون صفيحة نفط فارغة في ذيل كلب فيعدو الكلب فى الطرقات وهم ينصايحون خلفه والصفيحة تطن وراءه وهو ينبح فزعاً كأنه يظن جناً يلاحقه . ويظل يعدو حتى يخرج من المدينة الى الحقول فيرتمى من الاعياء . ولم

يكن فى مدينتنا غـــير عدد قليل من الـكلاب فد أحذتها الرعدة فجعلت أذنابها بين أرجلها . وكان الناس يقولون إنها لم تطق هـــــذا العبث فأدركها الجنون .

كانت المحطة تنشأ خارج المدينة على بعد خمسة أميال ، وشاع بين الناس أن المهندس طالب خمسين الف روبل رشوة حتى يجعل الخط يمر بالمدينة . ولـكن مجلس البلدية لم يقبل أن يعطيه أكثر من أربعين ألفا . فـكانت عشرة آلاف الروبل سبباً فى ترك الأمر . ولـكن أهل المدينة أخذوا يشعرون الآن بالأسف . فقد قامت الحاجة إلى انشاء طريق معبد الى المحطة . وقدرت نفقاته بأكثر من عشرة آلاف روبل .

وقد وضعت القضبان والعوارض الخشبية على طول الخط . وأخذت قطارات الصلاحة تجرى حاملة مواد البناء والعمال كل شيء قد تم إلا الجسور التى كان دولشيكوف يبنيها . وإلا بضع محطات هنا وهناك .

كانت دوانشايا — وهى المحطة الأولى — تبعد سبعة عشر ميلا عن المدينة . فذهبت ماشياً . رشمس الصباح تهدهد الحبوب الشتوية والصيفية فتبدو خضراء جميلة . والأرض سهلة بهيجة . وكان ياوح لى من بعيـد بناء المحطة وتلال المقابر والبيوت الريفية النائية . راقى أن أسير فى حرية. وكم وددت لو أشربت نفسى الاحساس بالحرية حتى تروى . وإن لم يدم ذلك غير هـذا الصباح . كم وددت لو صرفت عن التفـكير فيما يجرى بالمدينة . وفى حاجاتى ، وعن الاحساس بالجوع . إن سقائى الملح فى الحياة

لم يأت إلا من هـــذا الاحساس المؤلم بالجوع ، فتختلط أفكارى النبيلة بالتفكير فى العصيدة والشواء والسمك المقلى . حين أقف وسط الحقول وحيداً أرفع بصرى الى القبّرة التى تعبر السماء فوقى وهي تغرد وكأنما استولى عليها جنون الفرح — لا أعدو أن أفكر فى قطعة من الخبز والزبد وحين أجلس على جانب الطريق وأغلق عينى لأستريح . وأصغى إلى أصوات أيار الرائعة ؛ تمر بفكرى رائحة البطاطس الساخن . كان الاحساس بالجوع أهم ما أحس به . فقد كان ما أحصل عليه من القوت قليلا لا يناسب قامتى وبنيتى القوية . ومن هنا فهمت كيف أن كثيراً من الناس الذين لا يحصلون من عملهم الا على الكفاف لا يتحدثون إلا عن الطعام .

كانت محطة دوبشيا تجصص من الداخل ويوضع السقف الخشبى لخزان المـــاء . وكانت المحطة دافئة تستروح فيها رائحة الجير . والعمال يروحون ويغدون فيها على أكوام الصلصال والكناسة . وكان عامل الاشارة نائماً فى مرقبه والشمس تلفح وجهه . لم يكن بالمكان شجرة واحدة . وكانت أسلاك البرق تطن قليلا وقد وقفت عليها الصقور هنا وهناك . أخذت أتنقل بين الأكوام وأنا لا أدرى ما أصنع . وذكرت أن المهندس قال « ستدرى » حين سألته عن عملى ، ولكن ما عسى أن يكون هنـــاك من عمل فى ذلك المكان الموحش ؟ كان الحصاصون يتحدثون عن « الأسطى » وعن رجل يدعى فاسليف . ولكنى لم أفهم

عنهم ، بل استولى على الضيق – الضيق الجسمي الذى يصيب المرءحين يحسّ بيديه وقدميه وجسمه كله دون أن يعلم ماذا يصنع بنفسه ولا أين يذهب .

جلت قرابة الساعتين . ولاحظت أعمدة للبرق على يمين الخط ، تمتد ميلا ونصفاً وتنتهي عند جدار حجرى أبيض . قال العمال عنه إنه المكتب ، وهنا أدركت أن هذا هو المكان الذى ينبغى أن أتجه اليه . كان منزلا ريفياً عتيقاً موحشاً وقد تداعى الجدار الأبيض من أثر الجو حتى نقب وانهار فى بعض نواحيه . وكان الجانب الأصم من السقف والمواجه للحقل قد تآكل ورقع بقطع من الصفيح فى أكثر من مكان . ورأيت من خلال الأبواب فناء واسعاً قد عطته حشائش برية متكاثفة ، ومنزلا به عشر نوافذ مفتوحه . وقد استحال لون السقف داكنا من أثر الصدأ . وكان على جانبى المنزل مساكن متشابهة . ولولا أن شباك واحد منها قد غطي بألواح من الخشب . ونشرت بعض الثياب خارج مسكن آخر لتجف . كان المنزل نوافذ من هذه الجهة . وقد بدت بضعة عجول ترعى فى الفناء . وكان فيه آخر أعمدة البرق قد امتد منه سلك إلى المسكن الذى يواجه الحقل جدارُه الأصم كان باب المسكن مفتوحا فدخلت . وكان هناك رجل ذو شعر فاحم جعد يرتدى سترة كتانية ويجلس إلى جهاز البرق . نظر الىّ شزراً ثم ابتسم وقال :

– مرحى أيها « النفع القليل » !

كان الرجل إيفان شبرا كوف زميلى فى المدرسة . وقد طرد من السنة الثانية لأنه كان يدخن . وكنت وإياه نصيد الحسُّون والزرزور وغيرهما من الطيور فى الخريف ونبيعها بكرة فى السوق وأهلنا يغطّون فى النوم . كنا نرقب الأسراب الصغيرة من الطيور المهاجرة ونقذفها بقذائف صغار ثم نمسك الجريح منها ، فكان بعضها يموت متألماً ، ولا زلت أذكر أنينها فى قفصى . وكان بعضها يبرأ فنبيعه ونحن نقسم أنه من الذكور . وأذكر مرة أنى بقيت فى السوق ومعى زَرْزُور واحد لم أجد من يشتريه وأنا أعرضه مدة طويلة حتى بعته بكوبك . فقلت أنعزّى :

— لا بأس . نفع قليل

ومن ذلك الحين سمّانى التلاميذ وأصحاب الحوانيت « النفع القليل » ولا زالوا يسمونني به ؛ إذا أرادوا إغاظتى ؛ وإن لم يكن أحد غيرى يعلم الأصل فى هذه التسمية .

كان شبرا كوف رقيق البنية . ذا صدر ضيّق . وأرجل طويلة . وظهر مقوس ، وربطة رفيعة كالخيط . لا يلبس صدارا . وحذاؤه مكعوب ؛ فهو أسوأ من حذائى ؛ وكانت عيناه تطرفان ؛ وعلى وجهه تعبير جامد ؛ فهو كثير التَمَلْمُل كأنما يريد أن يقبض على شيء . قال فى احتفال :

— أنظِرْنى دقيقة . أصغ إلىّ . ماذا كنت أقول الآن ؟

وبدأنا نتحدّث . فعلمت أن الضيعة كانت إلى وقت قريب ملكا

لآل شبرا كوف ؛ وأنها بيعت فى الخريف الماضى للمهندس دولشيكوف ؛ الذى رأى أن استثمار المال فى الأرض أجدى منه فى الأسهم . فاشترى ثلاث ضياع كبيرة مرهونة فى المقاطعة . وقد اشترطت أمّ شبرا كوف فى العقد أن تقيم فى أحد المساكن سنتين بعد البيع . واحتالت على المهندس حتى حصلت لابنها على عمل عنده .

قال وهو يعنى المهندس .

— ولِمَ لا يشترى . إنه يغشّ المقاولين ويسلبُ كل الناس .

ثم أخذنى للطعام ، وأصرّ على أن أقيم معه فى المسكن وأتناول طعامى لدى أمّه . قال :

— إنها بخيلة نوعاً . ولكنها لن تكلّفك كثيراً .

وكان مسكن أمه صغيراً جداً . قد اكتظّ حتى جدرانه ومخزنه بالمتاع ، الذى كوِّم فيه من المنزل الكبير حين بيعت الضيعة . كانت السيدة شبرا كوفا تجلس فى مقعد كبير إلى جانب النافذة تنسج جورباً . وهى سيدة عجوز بدينة جداً ذات أعين مائلة كأعين الصينيين . وقد تلقتنى فى حفاوة حين قدّمنى قائلا :

— أماه : هذا هو بولوزنييف ، وقد قَدِم ليعمل هنا .

فسألتنى بصوت غريب كأن الدهن ينشّ فى حلقها :

— هل أنت من النبلاء ؟

— أجل .

— إجلس .

كان العشاء حقيراً . كعكة محشوة بجبن مر ، وشيء من حساء اللبن . وكانت مضيفتي إلينا نيكيفورفنا تطرف بعينيها طول الوقت ، بعين ثم بالأخرى . وهي تتحدث ونأكل . وكان جسدها يذكر المرء بالموت ، وكأن له ريح الجثة ، فنبض الحياة فيها ضعيف ، وإن كان يوحي بأنها كانت سيدة عظيمة في وقت ما تملك عبيداً ؛ كانت أرمل جنرال يخاطبه العبيد بصاحب السعادة . فإذا توهج البصيص في رماد حياتها قالت لابنها .

— إيفان . أحسن القبض على شوكتك .

أو تلتفت إلى وهي تلقف أنفاسها . في دقة السيدة الحريصة على إمتاع ضيفها بحديثها المؤدب وتقول .

— إننا قد بعنا ضيعتنا ، كما تعلم . وكان ذلك مؤسفاً لأننا اعتدنا الحياة فيها . ولكن دواشيكوف قد وعد أن يجعل إيفان ناظراً لمحطة دوبشنيا ؛ فلا نحتاج أن نتركها . وسنقيم في المحطة وبذلك نكون كأننا نقيم في الضيعة . إن المهندس رجل كريم . ألا ترى أنه جميل الصورة ؟

كانت أسرة شبرا كوف واسعة الثراء إلى عهد قريب . ولكن أحوالها تبدلت منذ مات الجنرال فبدأت إيلينا نيكيفورفنا تنازع جيرانها وتقاضيهم ، ولم تكن تدفع أجور وكلائها ومعاليها كاملة - كانت تخشى دائماً سرقتهم لها . وفي مدى سنوات عشر تبدلت أحوال دوبشنيا تبدلا تاماً ، فأهمل البستان القديم الذي كان خلف المنزل . وأصبح تغطيه

الحشائش والشجيرات البرية . وحين ذرعت الغرفة – ولم تكن قد تهدمت بعد أو ذهب رواؤها – كنت أرى خلال الباب الزجاجي غرفة أرضها من الخشب المدهون ، لعلها غرفة الاستقبال ولكن كان كل مافيها بيانًا عتيقًا . ورسومًا في أطر عريضة من خشب المغنة . ولم يعد يرى في أحواض الورد شيء سوى الخشخاش .

وكانت نيحاتها الحمراء والبيضاء تعلو على الحشائش . وعلى طول الطرقات كانت تتكاثر شجيرات الدردار والاسفندان النابتة وتسمق في الجو . وتتلاصق فتعوق نمو بعضها البعض . وقد أكلت الأبقار من أوراقها ، وتكاثفت النباتات في الحديقة حتى لم تدع بها طريقًا . ولكن ذلك كان في جوار المنزل حيث بقيت أشجار الحور . وأشجار الصنوبر والليمون العتيقة من آثار طرق عريضة دارسة أما وراء ذلك فقد أفسح الفناء لدرس الغلال . فلا يمتلىء فمك أو عيونك بخيوط العنكبوت . والهواء أكثر نقاء وفي الجو نسمة خفيفة وكلما أوغلت في البستان وبعدت عن المنزل زاد البستان اتساعًا . ورأيت أشجار الكرز والبرقوق تنمو حرة ، وأشجار التفاح العتيقة مستندة إلى أعواد وقد أفسد السوس شكلها . وأشجار الكمثرى وقد بلغت من الضخامة حدًا لا تظن معه أنها أشجار كمثرى . كان هذا القسم من الحديقة مباحًا لسكان المدينة . وكان يحرسه من اللصوص والزرازير فلاح أبله يسكن في كوخ قريب .

كان البستان ينحدر إلى النهر المملوء بالبردي ، وتقل كثافته حتى

يغدو أرضاً معشبة . وكان وراء سد الطاحونة لسان من الماء عميق مليء بالأسماك ، للضفادع فيه نقيق مزعج . أما الطاحونة الصغيرة المسقوفة بالبوص فكان لها دوى صاخب . وكان ماء النهر فى استواء المرآة . تمر عليه أحياناً دوائر صغار تضطرب على صفحته زنابق الماء تثيرها اندفاعة سمكة عابرة .

وكانت قرية دوبشنيا على الضفة الأخرى من النهر . ذلك الأزرق الهادىء الساحر يبعث الرَّوْح والسكينة . أصبح هذا كله الآن ماسكاً للمندس . الماء والطاحونة وضفة النهر الرائقة .

فى هذا المكان بدأ عملى الجديد . كنت أتلق البرقيات وأرسلها . وأعد قوائم الأجور . وأنقح التقارير والعرائض التى يبعثها الأميون من الاسطوات والعمال . على أنى كنت أقضى أكثر النهار لا أعمل شيئاً . أذرع الغرفة جيئة وذهوباً فى انتظار برقية تأتي . أو أترك صبياً يرقب ذلك . وأذهب أتمشى فى الحديقة حتى يسرع إلى الصبى يخبرنى أن آلة الاستقبال تدق . وكنت أتناول طعامى لدى السيدة شيرا كوف وهو فى الغالب طعام قوامه اللبن . أما اللحم فقلما كنا نأكله . كنا نأكل كل أربعاء وجمعة فى أطباق وردية اللون كانت تسمى أطباق الصيام .

اعتادت السيدة شيرا كوف أن تطرف بعينيها وكان محضرها يبعث فى نوعاً غامضاً من الضيق . ولما كان العمل أقل من أن يكلف به شخص واحد . فلم يعد لشيرا كوف شىء يعمله . فهو ينام أو يذهب إلى

النهر يصيد البط . وهو فى الليل يعاقر الخمر فى القرية أو المحطة.فاذا رأى صورته في المرآة قبل ان ينام صاح :

— مرحى . ايفان شبرا كوف .

واذا سكر شحُب وأخذ يفرك يديه .ويسمع له ضحك كالصهيل— هى . هِى . هِى — وربما بلغت به النشوة مبلغاً فتعرّى ، وأخذ يجرى فى الحقول عرياناً . وأكل الذباب وهو يقول إنه يحس له نوعاً من المرارة .

جاءنى مرة بعد العشاء وهو يعدو لاهياً وقال :

— تعال . إن أختك وصلت .

فتبعته ووجدت عربة خارج بوابة المنزل . وكانت هناك أختى . وأنيوتا بلاجوفو ومعهما رجل فى بزة عسكرية صيفية . عرفت فيه حين اقتربت ، أخا أنيوتا الطبيب

قال :

— قد أتيناك فى نزهة خلوية . أظنك لا تجد فى ذلك بأسا ؟

وكان يلوح على أختى وعلى أنيوتا أنهما تريدان أن تستفسرا عن حالى . ولكنهما كانتا تنظران الىّ فى صمت . وأما أنا فلم يكن عندى ما أقول . أدركتا أنى لم أكن سعيداً هنا فبدأت أختى تبكى واحمرت وجنتا أنيوتا .

ذهبنا إلى الحديقة وكان الطبيب فى الطليعة يقول فى تعجب :

— ما أنقى الهواء! يا إلهي ما أنقى الهواء!

كان مثـل طالب صغير جداً . يذكرك بذلك حديثه ومشيته ، وعيونه الرمادية ذات التعبير النافذ الصريح الخالص . وكان يبدو وكأنه يرتدي ثوب الحداد إلى جانب أخته الطويلة الجميلة . وكان خفيف شعر اللحية . وكذا كان صوته نبرة خفيفة عذبة . قال إنه ذهب إلى بطرسبرج في الخريف ليؤدي امتحانه . فقد كان ملتحقا بالجيش وجاء في إجازة يرى أسرته . فهو رب أسرة . تزوج في السنة الثانيـة وله ثلاثة أولاد . ولـكنهم يرجفون في المدينة بأن زواجه لم يكن سعيداً . وأنه قد ترك زوجته . قالت أختي في اضطراب:

— كم الساعة الآن ؟ أظنني يجب أن أعجل بالعودة فقد أذن لي أبي أن أبقى مع أخي إلى السادسة !

قال الطبيب متنهداً :

— يا لله . . أبوك .

وكنت في ذلك الحين قد أعددت السماور . وأخذنا نشرب الشاي ونحن جلوس على سجادة في المنزل الـكبير . قال الطبيب إنه سعيد سـعادة لا حد لها وكان راكعاً يشرب شايه في فنجانه . ثم نهض شبراكوف وذهب يحضر مفتاح الباب الزجاجي الذي يفضي إلى المنزل ودخلنا جميعا . فاذا به مكان كئيب تحيط به الأسوار . وتستروح فيه ريح الـكمأة . وكان لخطواتنا صدى كأن تحتنا عقد غرفة . وقف الطبيب

قريبا من البيان ولمس مفاتيحه برفق ، فأجاب بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد ولكنه واضح كل الوضوح . ثم أخذ يغنى أهزوجة فيتقلص وجهه . ويدق الأرض بقدمه نافد الصبر كلما خرس أحد المفاتيح عند لمسه . ولم تقل أختى شيئاً عن العودة إلى المنزل ، بل ظلت تدور فى الغرفة فاحصة وهى لا تفتأ تقول :

— كم هذا جميل ! أنا سعيدة . . . سعيدة للغاية .

كان يبدو غريبا لها أنها تستطيع أن تسعد . وكانت هذه هى المرة الأولى فى حياتى التى رأيتها فى مثل ذلك المرح . بل إنها كانت جميلة ، وإن كانت صورتها الجانبية خالية من الجمال فى أنفها وذقنها بروز كبير . وهى تبدو كأنها تنفخ دائماً فى شىء ما . ولكن كان لها عينان سوداوان جميلتان . ووجه شاحب رقيق . يخلب المرء بتعبيره اللانهائى بالعذوبة والحزن . وقد ورثنا بنيتنا عن أمنا . فنحن عراض الأكتاف . أقوياء . ولكن شحوبها كان علامة على المرض . وكثيراً ما كانت تسعل . وكثيرا ما لاحظت فى عينيها التعبير الذى يراه المرء عند المرضى المدنفين الذين يحاولون لسبب ما اخفاء مرضهم . وقد كان فى مرحها شىء من الطفولة والسذاجة . كأنما الفرح الذى حبسته طفولتنا الكئيبة وعطلته قد استيقظ فى روحها فجأة ليتدفق فى حرية

ولكن حين حل المساء وأحضرت العربة غاب على أختى الخضوع والسكون . وظهر عليها الاعياء حين جلست فى العربة وكأنما هى عربة

سجن . ولم يمض وقت طويل حتى كانوا قد ذهبوا وخفت صوت العربة المتباعدة فتذكرت أن أنيوتا بلاجوفو لم تتبادل معي كلمة في ذلك اليوم.

– إنها فتاة مدهشة . كذلك دار بفكري . – انسانة عجيبة .

وحل صيام الأربعين وكنا نتناول كل يوم طعام الصيام الخالي من اللحم ، وكان الكسل وعدم اطمئناني على مركزي يحزان في نفسي . فكنت أجوب الضيعة متراخيا حائما غير راضٍ عن نفسي واترقب حاله من النشاط لأترك المكان

وذات مرة في العصر . وكان راداشو معنا . دخل دوليشكوف دون أن نتوقعه . وقد لوحت وجهه أشعة الشمس وشحنه الغبار ، كان قد خرج يفتش على الخط منذ ثلاثة أيام . وقدم إلى دوسينا في قاطرة . ثم أكمل الطريق ماشيا جلس عندنا في المسكن ينتظر العربة التي أمر أن تقابله ، وطاف بالضيعة ومعه وكيله وهو يلقي إليه الأوامر بصوت عال ثم جلس ساعة كاملة في مسكننا يحرر رسائل . وبينما نحن هنا طاف البرقيات ترد اليه فيرد عليها بنفسه ... وقوف ... او بالمه.

قال وهو ينصت إلى حسابات صاحبنا :

– ما دامت الفوضى ... أنتم ... إلى المحطة خلال اسبوعين. ولست أدري ماذا أفعل بكم حينذاك. قال شيراكوف :

– إنني قد بذلت غاية جهدي يا سيدي .

— هدا صحيح . إنى أستطيع أن أرى جهدك . إن ذلك لا يعدو نسامك أجرك .

ونظر الى المهندس ثم استمر يقول :

— انك تعتمد على احد يمهد لك دربك فى الحياة بأقل جهد ممكن. وأنا لا تهمنى خطابات التقديم . فلم يعاونى إحد وقد كنت سائق قاطرة قبل أن يكون لى هذا الخط وقد اشتغلت وقاداً عاديا فى بلجيكا . ثم التفت الى راديس وقال

— وأنت يابانتلى ماذا تعمل هنا ؟ اتعاقر الرح ؟

كان المهندس يسمى الناس البسطاء باسم بانتلى . بينما يحتقر الرجال أمثال شرا كوف وأمثالى ويسميهم سكير . وبهائم . وسوقة . وقد [illegible] بجسده . ولا يرعى الرحمة فى تعيين أجورهم . أو [illegible]

[illegible] آخر الأمر فبشرنا المهندس وهو ذاهب أن يطردنا جميعاً فى مدى أسبوعين . ودعا الوكيل بالمجنون ، ثم تمدد فى العربة [illegible]

[illegible]

— يا أندريه إفانتش آتأخذنى عملا عندك .

— [illegible] لا ؟

وذهبنا معا صوب المدينة [illegible] عن محطة المزرعة قال :

— يا أندريه افانيتش ، لماذا جئت الى ڤوبشنيا ؟

— جئت أولا لأن بعض رجالى يشتغلون في الخط ، وثانياً لأدفع للسيدةشپرا كوف ربح مالها ، فقد اقترضت منها خمسين روبلا وأنا أدفع لها الآن روبلا عن كل شهر .

ثم وقف النقاش وقبض على سترتى وقال :

— يا صديق ميشيل اليكسيفتش . أنا أعتقد أن الرجل العامى أو النبيل اذا تقاضى ربحا ارتكب خطيئة ، ولم يعد يعرف الحق والعدالة .

وكان رآديش يبدو نحيلا شاحباً حاد النظر حين هز رأسه . وتمتم فى نبرة المتفلسف :

— إن الصراصير تأكل الحشيش . والصدأ يأكل الحديد . والأكاذيب تنخر الروح . اللهم احفظنا نحن الخاطئين التعساء .

— ٥ —

كان راديش رجلا خيالياً ، ولم يكن رجل أعمال . فكان يتعهد أعمالا لا يستطيع أن ينهض بها . وحين يأتى ميعاد الدفع كان ينسى حسابه وبذلك كان يعمل بالخسارة دائماً .

كان راديش نقّاشاً وزجّاجا . ومورّق جدران . وقد يشتغل فى أردواز السقوف ، وأذكر أنه ظلّ يبحث مرة ثلاثة أيام عن ألواح أردواز ليحصل على ربح تافه . وكان عاملا ماهرا قد يجنى عشرة روبلات

فى اليوم ، ولولا طموحه إلى أن يكون أسطى وأن يسمى نفسه مقاولا لكان قد جمع قدراً طيبا من المال .

كان يقبض عن الصفقة ، ويدفع لى ولغيرى عن اليوم بين الخمسة والسبعين كوبكا والروبل . وحين يكون الجو حاراً جافا كنا نؤدى أعمالا مختلفة فى الخارج أهمها طلاء السقوف . كانت أقدامى — قبل أن اعتاد ذلك العمل — تحترق كأنما كنت أمشى على فرن ملتهب ، فاذا لبست حذاء اللباد ورمت قدماى . ولكننى اعتدت العمل بعد قليل وسار كل شىء على ما يرام . وأصبحت أعيش الآن بين قوم يرون العمل شيئاً ضروريا لا مفر منه ، فهم يعملون كخيول العربات . أماالقيمة الأدبية للعمل فشىء لم يكونوا ليدركوه ولم يكن يدور فى حديثهم . وقد شاركتهم هذا الشعور حين شاركتهم الحياة . فحاولت أن أقنع نفسى أن عملى شىء مهم لا مفر منه . وقد ساعدتنى هذه الفكرة على احتماله ونفت عنى الظنون .

راقتنى أول الأمر جدة كل شىء . وشعرت أنى ولدت من جديد . استطعت أن أنام على الأرض . وأن أمشى حافياً . وكان ذلك كله يلذلى . واستطعت أن أكون وسط جماعة من العمال دون أن أشعر أنى أضايق أحداً . وإذا سقط جواد فى الطريق سارعت أعاون فى رفعه ، دون أن أخشى تلوث ملابسى . وكنت — وهذا هو أهم شىء عندى — أعيش على كسب يدى ولا أثقل على أحد .

كان طلاء السقوف ، وخاصة بما كنا نستعمل من زيت وطلاء . عملا مربحا للغاية ، ولذا لم يكن أحد يحتقره على خشونته ومشقته حتى الأسطوات أمثال راديش . كان راديش يمشى على السقف فى سراويل قصار بأرجله الحمر كأنه البجعة وكنت أسمعه يهجس لنفسه وهو يطلى . اللهم احفظنا ، نحن الخاطئين التعساء ! وكان راديش يتنقل على السقوف فى سهولة كأنه على الأرض . وكان نشاطه غريبا برغم ما يبدو فى مظهره من ضعف يقرّبه من الأموات . وهو حين يطلى قبة كنيسة أو أعلى سقفها لا يستعمل السقالة . وإنما يستعمل سلما وحبلا . كما يفعل من هم أفتى منه من الرجال . فاذا وقف على قمة السلم بعيداً عن الأرض ، وقد انتصبت قامته . راع المرء أن يسمعه يهتف دون أن يقصد أحداً بعينه .

— إن الصراصير تأكل الحشيش . والصدأ يأكل الحديد . والأكاذيب تنخر الروح . أو نسمعه يقول كأنما يجيب على أفكاره .

— كلّ شيء قد يكون . كل شيء قد يكون .

عند رواحى كان الكتبة وصغار أصحاب الحوانيت . وفتيانهم الجالسون فى حدائقهم يتندرون بى ، وقد أزعجنى ذلك أولا الأمر ، بدا لى شيئا فظيعا . كنت أسمع من كل جهة «النفع القايل»،«النماس».«الطينة الصفراء» ولم يكن أحد يفسر فى معاملتى وسوء اولئك الذين كانوا الى عهد قريب من عامة الناس . يكتسبون آراءهم بالعمل الشاق وحده .

فربما ألقوا على جرة ماء وكأنهم لا يقصدون ذلك. وأنا أسير فى السوق إلى جانب بائع الحدائد؛ وقد قذفونى مرة بعصا. واعترض طريقى سماك كهل أشمط وقال لى خاطبا:

— أيها الأبله، أنا لا آسف لك، وإنما أسفى لأبيك.

ولأمر ما كان يبدو الضيق على أصدقائى حين يلقوننى: منهم من يرانى شاذًا مغفلا، ومنهم من يشفق على، ومنهم من حار فى أمرى فهو لا يدرى كيف يواجهنى. وكان من الصعب أن يحدس المرء ما خالجهم نحوي من شعور. قابلت أنيوتا بلاجوفو فى وضح النهار مرة فى درب من دروب شارع الأعيان الكبير؛ وكنت فى طريقى إلى عملى. وأنا أحمل فرجونين طويلين ودلو طلاء، فتخضب وجهها حين عرفتنى وقالت:

— أرجوك ألا تظهر معرفتك لى فى الطريق.

قالت ذلك فى عصبية وجفاء وبصوت مرتعش دون أن تمد يدها بالسلام. ثم لمعت الدموع فى عينيها وقالت:

— اذا وجب أن تكون كما أنت الآن فلك ذلك. ولكنى أرجوك أن تتجنبنى أمام الناس

وكنت قد تركت شارع الأعيان الكبير. وسكنت فى ضاحية ناسى مكاريخا مع مربيتى، العجوز كاربوفنا.؛ وهى امرأة سليمة الطوية؛ ولكنها عجوز كثيرة التشاؤم ترعجها أحلامها، وترى الفأل السيء والنحس فى النحل والضبابير التى تطير فى غرفتها. وكانت تعتقد أن أمرى

لا يبشر بخير إذ عدوت عاملا. قالت في أسى وهي تهز رأسها :

— أنت فتى ضائع . . ضائع .

وكان يسكن معها في بيتها الصغير ابنها المتبنّى پروكوفى . وهو جزار ضخم ، ورجل جاف قد قارب الثلاثين، أحمر الشعر ، أجرد الشارب . كان اذا لقيني فى ردهة الدار تنحى لى عن الطريق فى صمت واحترام ، وإذا سكر حياني تحية عسكرية . وفى المساء بعد تناول العشاء كنت أسمع من وراء الحاجز الخشبي شخيره ونخيره وهو يشرب قدحاً إثر قدح . ويقول بصوت خافت :

—أماه .

فتجيبه كارپوفنا وكانت شديدة الحب له :

— نعم . ماذا لديك يا ولدى ؟ .

— سوف أحسن إليك ياأماه . فأطعمك حين تعلو بك السنّ فى وادى الدموع هذا . وحين يدركك الموت سأدفنك على حسابى. هذا قولى وسأنفذه.

واعتدت أن أصحو كل يوم قبل الشروق، وآوى إلى فراشي مبكراً فنحن — النقاشين — نكثر من الأكل وننام نوماً عميقاً. ولكنى فى الليل كنت أحسّ بقلبي يدقّ دقا سريعاً لغير سبب أعلمه .

لم أتشاجر مع رفاقى قط . وإن كان النهار كله ينقضى دون أن يكفّ سيل الشتائم . والدعوات الصالحة من نحو : ليفقأ الله عينيك! أو لتصبك الكوليرا ! فان ذلك لم يمنع أن تقوم الصداقة المتينة فيما بيننا . وكانت

تخالج الرجال فى أمرى شبهة أنى من أتباع طائفة دينية خاصة ، وكانت طبائعهم الساذجة تدعوهم إلى الضحك منى ، قائلين إننى منبوذ حتى من والدى ؛ وكانوا يقرّون بأنهم لا يذهبون إلى الكنيسة إلا لماما ، وأن كثيراً منهم لم يجلسوا فى كرسى الاعتراف منذ سنوات عشر . وكانوا يبررون ذلك التوانى بأن النقاش بين الناس كغراب الزرع بين الطيور .

كان رفاقى يحترموننى ويكبروننى . وقد حببنى إليهم فيما يبدو أنى لم أكن أسكر أو أدخن ، وأنى أحيا حياة هادئة رتيبة . على أن الأمر الذى كان يثير فيهم الاستغراب هو أنى لم أكن أسرق الزيت أو أذهب معهم إلى مستخدمنا نطلب كأسا . فقد كانت سرقة الزيت والطلاء عادة من عادات نقاشى البيوت . ولم يكن ينظر إليها على أنها سرقة . حتى إن رجلا شريفاً مثل رادايش كان يأتى دائماً من عمله — وهذا عجيب — بشىء من الزيت والأبيض . بل إن بعض الشيوخ المحترمين الذين كانوا يملكون منازلهم الخاصة فى مكاريجا لم يكونوا يخجلون من طلب الحلوان . وكم مس قلبى الحزن والآلام حين كنت أرى الرجال فى بدء العمل أو نهايته ، يتقدمون إلى مغفل من السوقة ويشكرونه فى ذلة على ما نفحهم به من أفلاس قليلة . كان العمال يسلكون مع العملاء مسلك رجال الحاشية الماكرين . وكان ذلك يذكرنى كل يوم بشخصية پولونيوس عند شكسبير . يقول العميل وهو ينظر إلى السماء :

— سينزل المطر لا محالة .

فيؤمّن العمال على كلامه قائلين :

-- لا شك أنها ستمطر

— ولكن السحب لا تنذر بمطر . فلعلها لا تمطر .

— نعم ياسيدى لن ينزل المطر . لن ينزل المطر .

ولكن العميل لا يكاد يولّيهم ظهره حتى يسخروا منه سخرية قاسية وإذا رأوا سيدا يجلس فى شرفته وبيده جريدة قالوا

— إنه يقرأ الجرائد . ولكنه لا يجد ما يأكله .

لم أزر أهلى قط . ولكنى كنت أجد عند عودتى من العمل غالبا كلمات قليلة تشف عن الحزن تكتبها أختى إلىّ عن أبى . كيف كان شارد الذهن أثناء العشاء . وكيف انسل إلى مكتبه وأغلق عليه بابه ولم يغادره الا بعد زمن طويل . وكان مثل هذه الأخبار يزعجنى فلا أقدر على النوم، بل كنت أخرج فى الليل أحيانا و[illegible] شارع الأشجار [illegible] بمنزلنا . وأتطلع إلى النوافذ [illegible] [illegible] [illegible] أ[illegible] فى الداخل على [illegible] [illegible] أختى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حفية كأنها لم تكن [illegible] بل [illegible] فإذا دخلت غرفتى، سحبت [illegible] [illegible] [illegible] عيناها وتقول

— إن [illegible] [illegible] هذا فإذا أصابه [illegible] لا قدر الله

سقط [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ضر الملك

يحى أمك [illegible] [illegible] [illegible] أمرك

فأجيب:

— يا أختى العزيزة . كيف أصالح أمراً أعتقد أنى أسير فيه بوحى ضميري ؟ حاولى بالله أن تفهميني

— أنا أعلم أنك تعمل بوحى ضميرك . ولكن ينبغى أن تفعل ذلك دون أن نؤذى أحداً .

وهنا تتنهد العجوز من وراء الباب وتقول :

يا للقديسين فى السماء أنت فتى ضائع . حذار أيها الأعزاء . أن الشر واقع . واقع لا محالة .

— ٦ —

جاء الطبيب بلاجوفو برانى فى أحد أيام الآحاد . ولم أكن أتوقع مجيئه كان فى بزة عسكرية صيفية بيضاء فوق قميص حريرى ، وحذاءين طويلين من الجلد الثمين . قال وهو يقبض على يدى مسلماً فى حرارة الشباب :

— لقد جئت أراك . وأنا أسمع أنباءك كل يوم . وقد عزمت منذ حين أن أراك فتفتح قلوبنا كما يقولون . إن الأمور فى المدينة مملة للغاية . فليس هناك إنسان واحد جدير بتبادل الحديث معه . يالله ! إن المكان حار . قال ذلك ونزع سترته فوقف فى قميصه الحريرى ثم عاد يقول .

— يا رفيقى العزيز . لنتحدث معا .

وكنت أشعر بالملل وأتوق إلى صحبة غير صحبة النقاشين فسرنى

حقا أن أراه . قال وهو يجلس على فراشى :

— أنا ، قبل كل شىء ، أشاركك الشعور بكل قلبى . وأحمل فى نفسى احتراما عميقا لطريقتك فى الحياة . فأمرك مأخوذ فى المدينة على غير وجهه ، وليس هناك من يفهمك لأن المدينة مليئة بوجوه الخنازير التى وصفها جوجول . ولكنى أدركت من أنت يوم النزهة الخلوية . أنت روح نبيل . أنت رجل شريف كبير العقل . وأنا أحترمك وأعد مصافحتى إياك شرفا . فلا بد أنك مررت بأزمة روحية بالغة الحرج حتى استطعت أن تحول حياتك هذا التحول المباغت الحاد كما فعلت . وعليك الآن دون شك أن تحمل عقلك وقلبك عناء لا ينقطع حتى تعيش وفق معتقداتك دون أن تحيد عنها قيد أنملة . والآن قل لى بربك . ألا تظن أنك لو كنت بذلت ما بذلت من قوة الإرادة والعزم والجهد فى شىء آخر . كأن تحاول أن تكون أستاذا كبيرا أو فنانا . ألم يكن ذلك أدعى إلى أن يجعل حياتك أوسع وأعمق وأكثر إنتاجاً ؟

تحدثنا ، ولما انعطف الحديث إلى العمل اليدوى أبديت هذه الفكرة : وهى أنه من الضرورى ألا يستعبد القوى الضعيف . وأن الأقلية لا ينبغى أن تعيش عيالا على الأغلبية ، تمتص أصفى الرحيق . أعنى بذلك ان الجميع دون استثناء — ان القوى والضعيف . والغنى والفقير . ينبغى ان يشاركوا جميعاً فى الكفاح من اجل الوجود . فيناضل كل رجل لنفسه . وليس فى هذا السبيل وسيلة للتسوية بين الناس خير من

العمل اليدوي والخدمة المفروضة على الجميع . قال الطبيب :

– فأنت تظن إذن ان الجميع دون استثناء ينبغي ان يستخدموا فى العمل اليدوى ؟

– اجل.

– ولكن الا تظن إذا كان على جميع الناس ، حتى العظماء من المفكرين والعلماء ، ان يشاركوا فى الصراع من اجل الوجود ، كل رجل لنفسه . فقاموا يكسرون الأحجار ويطلون السقوف – الا تظن فى ذلك تهديدا للتقدم الإنسانى ؟ فسألت :

– أين هذا الخطر ؟ إن التقدم يقوم على أعمال المحبة والتحقيق التام للقانون الخلق . فاذا لم تستعبد أحداً . وإذا لم نكن حملا على أحد . فماذا ترجو بعد ذلك من تقدم .

قال بلاجوفو وقد احتد فجأة وانتصب واقفا :

– ولكن مهلا . لو أن القوقعة فى صدفتها شغلت بتكميل نفسها طاعة للقانون الخلق أتسمى ذلك تقدماً ؟ قلت مغضباً :

– كيف تقول هذا ؟ إنك إن لم تكلف جارك أن يطعمك ويكسوك ويحميك ويدفع عنك أعداءك فان ذلك هو التقدم وسط حياة تقوم على العبودية . إنى لأرى ذلك هو التقدم حقا ؛ بل لعله أن يكون هو وحده التقدم الممكن . التقدم الضرورى .

– إن حدود التقدم العالمى الذى هو أمر مشترك بين الناس جميعاً .

حدود لا نهائية ؛ وإذن فسيبدو لى من الغريب أن نتحدث عن تقدم « ممكن » محدده حاجاتنا وتصوراتنا الموقوتة . قلت :

— لو أن حدود التقدم كانت لا نهائية كما تقول فان ذلك يعنى أن غاياتها غير معينة ، فكر كيف يمكن أن تعيش دون أن تعرف معرفة دقيقة لماذا تعيش

— ولماذا لا يكون الأمر كذلك ؟ « إن عدم معرفتك » ليبعث فيك من السأم ما تبعثه « معرفتك » . إنى أرقى سلماً نسمى تقدماً أو حضارة أو ثقافة . وأظل أصعد وأصعد دون أن أعرف إلى أى غاية أقصد . ولكن للحياة قيمتها ما دامت من أجل هذه السلم الرائعة . ولكنك أنت تعلم بالدقة لماذا تعيش — إنك تحيا كى لا ترى جماعة من الناس تستعبد اخرى . وحتى ترى أن الفنان ينال من الغذاء الطيب قدر ما ينال الرجل الذى خلط له اصباغه . وهذه هى البورجوازية . هذا هو جانب المطبخ من الحياة . اليس مما يثير الاشمئزاز ان يكون هذا غاية الوجود ؟ بل إذا كان من الحشرات ما يأكل غيره قايأ كله . وليذهب بها الشيطان . اما نحن فلا نحتاج ان نفكر فيها . فمصيرها إلى الفناء والعفن مهما نحاول ان ننقذها من العبودية . وإنما ينبغى علينا ان نفكر فى الف السنة العظيمة التى تنتظر الإنسانية فى المستقبل البعيد .

كان بلاجرفو يجادلنى فى حرارة . ولكن كان يبدو عليه ان فكرة خارجية ما تبعث فيه الاضطراب . قال وهو ينظر إلى ساعته :

— إن اختك لن تأتى . لقد كانت فى بيتنا امس وقالت إنها ستأتى لتراك . ثم مضى يقول : إنك تلح فى الحديث عن العبودية . ولكنها مسألة خاصة والإنسانية جادة فى حل هذه المسائل كلها تدريجاً .

وأخذنا نتحدث عن التطور . فقلت إن كل إنسان يكوّن بنفسه فكرته عن الخير والشر . وهو لا ينتظر ان تحل الانسانية الأمر حلا يخضع للتطور التدريجى . ثم إن التطور عصا ذات طرفين . فإلى جانب النمو التدريجى للأفكار الانسانية . هناك نمو تدريجى لأفكار من نوع آخر . لقد اندثرت العبودية ونمت الرأسمالية ومع ما بلغته افكار التحرير من ذروة عليا . فان الأغلبية ما زالت تطعم الأقلية وتكسوها وتحميها كما كانت تفعل أيام باتى . بينما تظل هى جائعة عريانة ليس لها ما يحميها. وتسحق أوضاع الأسود . [illegible] وحركاتك . لأن فن الاستعباد قد تطور ايضاً تطوراً تدريجيا فنحن لا نجد الآن خدمنا فى الاصطبلات . ولكننا نجعل للعبودية أشكالا أكثر تهذيباً . ونحن على أية حال نستطيع أن نبررها فى كل حالة على حدة . الآراء عندنا لا تعدو أن تكون آراء . ولكننا الآن فى نهاية القرن التاسع عشر استطعنا أن نلقى على الطبقات العاملة كل ما نكره من أعمال جسمانية . ثم نحجم أن نفعل ذلك . وبررنا عملنا بقولنا إنه لو قدر على صفوة الناس أى على المفكرين وكبار العلماء ، أن يبددوا وقتهم فى مثل هذه الأعمال ، فان التقدم يصبح فى خطر شديد .

وفى هذه اللحظة دخلت أختى : فأصابها اضطراب وقلق حين رأت الطبيب ، وأخذت لحينها تقول إن الوقت قد أزف لتعود إلى البيت إلى جوار أبيها . قال بلاجوفو فى حرارة وهو يضع يده على قلبه :

— كليوبطرا ألكسيفنا ! ماذا يحل بأبيك لو أنك قضيت نصف ساعة مع أخيك ومعى ؟

كان بلاجوفو واحداً من أولئك الرجال البسطاء ، يستطيع أن يبعث في غيره ما عنده من مرح . فكرت أختى لحظة ثم بدأت تضحك وتضحك وقد استولت عليها سعادة مباغتة كما فعلت يوم النزهة الخلوية. فخرجنا الى الحقول ، ورقدنا على الحشيش . وأخذنا فى الحديث ونحن ننظر الى المدينة حيث راحت النوافذ المواجهة للغرب تبدو ذهبية فى ضوء الشمس الغاربة .

منذ ذلك الحين كانت أختى تأتى بعد بلاجوفوفى كل مرة يجىء فيها. فيحيي كل منهما الآخر وكأن لقاءهما لم يكن متوقعاً كانت أختى تصلى وأنا أجادل الطبيب . وقد بدا على وجهها الفرح والتطلق فى إعجاب وتطلع . فيخيل إلى أن عالماً جديداً أخذ يتكشف أمام عينيها فى بطء . عالما لم تره من قبل حتى فى أحلامها . وهى الآن تحاول أن تراه بالظن ، فاذا لم يأت الطبيب كانت ساكنة حزينة . واذا بكت احيانا وهى جالسة على سريرى . فقد كان بكاؤها لأسباب لم تذكرها .

وفى شهر آب (اغسطس) أمرنا راديش ان نذهب الى سكة الحديد.

وقبل أن « نساق » خارج المدينة بيومين جاء أبي ليرانى . فجلس دون أن ينظر إلى ، ومسح وجهه متباطئا ، ثم أخرج من جيبه الجريدة المحلية . وقرأ وهو يضغط على كل كلمة ضغطا مقصوداً : أن أحـــــد أترابى فى المدرسة . وهو ابن مدير بنك الدولة . قد عين رئيسا للكتاب فى مكتب وزير المالية ، ثم قال وهو يطوى الصحيفة :

— والآن تأمل نفسك. فأنت شحاذ أفاق وغد. إن الناس جميعا يسعون إلى التعلم ، حتى الطبقة العاملة والفلاحين . كى يصبحوا به قوما مهذبين . أما أنت — وأنت واحد من آل پولوزنيف . وسليل أجداد ذوى شهرة ونبل — فتذهب تتمرغ فى الوحل . ثم قال فى صوت مختنق وهو يقف :

— على أنى لم آت إلى هنا لأحدثك . فقد نفضت منك يدى وانتهى الأمر ولكنى جئت لأعلم اين اختك الآن أيها الوغد. فقد تركتنى بعد الغداء . والساعة الآن قد جاوزت الثامنة ولكنها لم تعد بعد . إنها لتخرج فى هذه الأيام دون أن تخبرنى . وهى لم تعد تحترمنى كما يجب . إننى أري فى ذلك تأثيرك القذر الكريه . اين هى ؟

كان يحمل فى يده مظلته المألوفة . وكنت قد أخذت على غرة ووقفت جامداً منتصبا كتلميذ . انتظر أن يضربنى ابى . ولكنه رآنى وأنا أنظر إلى المظلة : . ولعل ذلك جعله يتمالك نفسه . وقال :

— عش كما تريد ؛ فما عدت أدعو لك .

تهامست مربيتى العجوز من وراء الباب :

— يا إله السماء ! أنت في ضائع . إن قلبي ليشعر بمصيبة مقبلة . إنني لأحس ذلك .

وذهبت أعمل في الخط . وقد تعاقب الريح والمطر طوال شهر آب . وكان الجو رطبا بارداً ، وقد جمع القمح في الحقول ، أما في المزارع الكبيرة حيث الحصد بالآلات فقد كوّم القمح أكواماً ولم يوضع في زكائب . ولا زلت أذكر تلك الأكوام الكئيبة يشتد قتامها يوما بعد يوم ويفرّخ فيها الحب . كان العمل شاقاً وقد أفسد علينا المطر المنهمر كل شيء وفقنا إلى إنجازه . ولم يكن يرخص لنا في الإقامة أو النوم في أبنية المحطة . بل كان علينا أن نأوى إلى أكواخ رطبة من الطين سكنها الفَعَلة طوال الصيف ، فلم أكن استطيع النوم ليلا لشدة البرد وللبق الزاحف على وجهي ويدى . وحين كنا نعمل قريبا من الجسور كان الفعلة يحتشدون ليحاربوا النقاشين الذين كانوا يرون في ذلك نوعا من الرياضة . فكانوا يوسعونا ضرباً ويسرقون الفراجين ويعملون على إغاظتنا وإثارتنا لحربهم بأن يفسدوا عملنا كما كانوا يفعلون حين يلطخون مراقب الاشارة بالطلاء الأخضر . وزاد صنوف شقائنا هذه ان راديش لم يعد ينقدنا أجورنا بانتظام ؛ فقد أُنيط طلاء الخط كله بمقاول . فنزل عنه لآخر ، وكلف الثاني راديش أن يقوم به لقاء وساطة قدرها عشرون في المائة . وكانت الصفقة نفسها غير مربحة . ثم جاءت الأمطار ، وضاع الوقت ، فكنا لا نعمل شيئا بينما كان على راديش أن ينقد عماله أجورهم كل يوم . فكان العمال الجائعون

يكادون يتضاربون وإياه ، ويدعونه غشاشا ومصاص دماء ويهوديا ، أما راديش المسكين فكان يتحسر ويرفع يديه إلى السماء . ولا يفتأ يذهب إلى السيدة شبراكوف يقترض منها المال .

— ٧ —

جاء الخريف بمطره ووحله وقتامه ، وحلّت معه فترة خمول ، فكنت أظل فى البيت ثلاثة أيام من الأسبوع دون عمل . أو أقوم بأعمال غير الطلاء ، كالحفر لاستخراج الصابورة نظير عشرين كوبكا فى اليوم . وقد ذهب الطبيب بلاجوفو إلى بطرسبرج . ولم تعد أختى تأتي لتراني . وأصبح راديش ملقى فى سريره مريضاً يتوقع كلّ يوم أن يوافيه الأجل .

وكان مزاجى خريفيا أيضاً . ولعل ذلك يرجع إلى أنى حين أصبحت عاملا ، أرَ إلا الناحية السيئة من حياة مدينتنا وكنت فى كل يوم أكتشف أشياء جديدة تنتهى بى إلى اليأس فقد بدا لى سكان المدينة جميعاً وضعاء فسقة همهم التفكير فى خدعة دنيئة . وسواء فى ذلك من كنت أسقطه من نظرى سابقاً . ومن كنت أجده على حظ من التهذيب . وكنا نحن الفقراء نخدع ونغالط فى الحسابات . ونترك فى الردهات الباردة . وفى المطابخ ننتظر ساعات . وكنا نشتم ونعامل معاملة سيئة . وفى الخريف كان على أن أورّق جدران المكتبة وغرفتين فى النادى وقد دفعوا لى فى الحجرة سبعة كوبكات . ولكنهم طلبوا منى أن أعطيهم إيصالا باثنى عشر كوبكا ؛ وحين رفضت ذلك قال لى سيد محترم ذو منظار ذهبى ؛ ولعله أحد رؤساء الخدم :

— أيها الوغد ، سأطرحك أرضاً إذا قلت كلمة أخرى .

ولكنه اضطرب واحمرّ وجهه حين همس أحد الخدم فى أذنه بأنى ابن پولوزنيف المهندس ، فتمالك نفسه لساعته وقال :

— لعنه الله .

وفى الحوانيت كانوا يبيعوننا — نحن العمال — اللحم فاسداً ، والدقيق عفنا ، والشاى خشناً . وفى الكنيسة كانت الشرطة تدفعنا ، وفى المستشفيات كان المساعدون والممرضات يغرموننا الغرامات . فاذا أعجزنا الفقر عن رشوتهم قدِّم الينا الطعام فى أطباق قذرة . وفى مكتب البريد كان أحقر الموظفين يرى من واجبه أن يعاملنا معاملة الحيوان . وأن يصيح بنا فى خشونة ووقاحة قائلا :

— انتظروا . لا تهجموا هكذا داخل المكتب .

بل إن الكلاب كانت تعادينا . وتندفع نحونا فى حقد غريب . ولكن أهم ما راعنى فى وضعى الجديد هو فقدان العدالة . أو ما يسميه الناس « نسيان الله » . فلا يكاد يمر يوم دون ان أُغبن . فصاحب الحانوت الذى يبيعنا الزيت ، والمقاول ، والعمال ، والعملاء أنفسهم — كل هؤلاء يغشون . أما حقوقنا فقد كان المفهوم أنها شىء لا يدخل فى حساب أحد ، فاذا ذهبنا نطالب أجورنا كان علينا أن نطلبها كأننا نسأل إحساناً ، ونحن وقوف حاسرى الرءوس عند الباب الخلفى .

كنت أورِّق إحدى غرف النادى ، وهى مجاورة للمكتبة ، وفى

إحدى الأمسيات وقد كدت أذهب دخلت ابنة دولشيكوف وهى تحمل رزمة من الكتب . انحنيت لهـــا فقالت وقد عرفتنى لحينها وبسطت يدها .

— آه ، كيف أنت ؟ أنا سعيدة جداً برؤيتك .

وابتسمت وقد بدا عليها الاستغراب والارتباك وهى تنظر إلى جلبابي وإلى دلو العجين والأوراق على الأرض ، فارتبكتُ وارتبكتْ هى الأخرى ، وقالت :

— اغفر لي تحديقى اليك ، فقد سمعت عنك كثيراً . وخاصة من الطبيب بلاجوفو فهو شديد الاهتمام بك . ولقد لقيت أختك وهى فتاة حبيبة رقيقة . ولـكنى لم أستطع أن أهديها إلى أن حياتك البسيطة ليس فيها ما يروع . بل أنت على الضد أخلق رجال المدنية بالاعجاب . ثم نظرت مرة أخرى إلى دلو العجين والأوراق وقالت :

— وقد طلبت إلى الطبيب بلاجوفو أن يجمعنى بك . ولـكنه نسى أو شغل عن ذلك . وعلى أية حال فقد اجتمعنا الآن . وكم يسرني أن تزورنى فنتحدث ؛ وكم يشوقني هذا الحديث ! ثم قالت وهى تمد يدها :

— أنا إنسانة بسيطة ، وأرجو أن تأتى وترانى فى غير احتفال . وليس أبى هنا فهو فى بطرسبرج .

ثم ذهبت إلى غرفة المطالعة ؛ وأنا أسمع حفيف ثوبها ؛ فلما عدت إلى البيت قضيت وقتاً طويلاً وأنا لا أستطيع أن أنام

وفى أثناء ذلك الخريف كان يهدى إلى روح كريم بين الحين والحين هدايا من الشاى والبطيخ والبسكويت والطير المشوى ، راغباً أن يرفه بها وجودى . وكانت كاربوفنا تقول ان جندياً يجاب الهدايا ، وان لم تعلم من أين . وكان من عادة الجندى أن يسأل : هل أنا بخير ؟ وهل أجد عشاء كل يوم ؟ وهل عندى ملابس مدفئة؟ وحين بدأ الصقيع جاء الجندى فى غيبتى ومعه وشاح ناعم منسوج باليد ، تنبعث منـــه رائحة رقيقة لا تكاد تحس ، وقد حزرت اسم ملاكى الحارس إذ كان للوشاح رائحة زنبق الوادى ، وهى عطر أنيونا بلاجوفو الحبيب

وباقتراب الشتاء كثر العمل ؛ وأصبحت الأشياء أكثر مرحا . وعاد راديش إلى الحيـاة ، وأخذنا نعمل معا فى كنيسة المقبرة ، حيث كشطنا المحراب المقدس لنطليه بالذهب . وكان ذلك عملا نظيفا ، هادئا ، أو كما قال عنه رفاقنا : عملا طيباً . وكنا نستطيع أن ننجز فى اليوم جانباً كبيراً منه ؛ وكذلك كان الزمن يمر بسرعة دون أن نشعر به . ولم يكن هناك سباب أو ضحك أو مشاحنات ؛ فقد كان المكان يفرض الهدوء والأدب ، ويهيء المرء للأفكار الهادئة الجادة . واستغرقنا العمل فكنا نجلس أو نقف دون حركة كالتماثيل . وكان الصمت المخيم يناسب المقبرة ، فاذا اسقطت أداة أو اندلق زيت المصباح ، كان الصوت عاليا مزعجاً . يحدو بنـا إلى الالتفات لنرى ما حدث . وبعد صمت طويل قد يسمع المرء تمتمة مثل طنين النحل هى صلاة الجنازة تقرأ همساً فى الرواق على

جسد طفل ميت . أو يبدأ نقاش يرسم على القبة قمراً حوله نجوم فى صفير هادىء ، فاذا ذكر أنه فى كنيسة قطع صفيره فجأة ، أو يزفر راديش وهو يفكر : «كل شىء قد يحدث . كل شىء قد يحدث» ، أو يسمع فوق رءوسنا رنين جرس بطىء حزين ؛ فيقول النقاشون : إن ذلك لا بد أن يكون لرجل غنى أتى بجثته إلى الكنيسة .

كنت أقضى النهار فى هدوء الكنيسة الصغيرة ، وفى المساء ألعب البليارد أو أذهب إلى المسرح فى حلتى الصوفية الجديدة التى اشتريتها بمال كسبته من كدى . وكانوا قد بدأوا يعرضون المسرحيات ، ويقيمون الحفلات الموسيقية فى بيت آل أشوجين ، وكان راديش يرسم المناظر بنفسه . وقد حدثنى عن المسرحيات واللوحات الحية عند آل أشوجين ، فكنت أصغى اليه وأحسده ؛ كانت بى رغبة ملحة فى المشاركة فى التجارب ، ولكنى لم أجرؤ على الذهاب إلى بيت أشوجين .

وعاد الطبيب بلاجوفو قبل عيد الميلاد بأسبوع ، فاستأنفنا مجادلاتنا وكنا نلعب البليارد فى المساء . وكان من عادته حين يلعب البلياردو أن ينزع سترته ، ويفك عن رقبته أزرار قميصه ، ويحاول أن يبدو مثل رجل عربيد حقا . وكان يشرب قليلا ولكن فى صخب ، وينفق فى حانة رخيصة مثل الفولجا أكثر من عشرين روبلا فى الليلة .

وجاءت أختى مرة أخرى اترانى . فلما التقينا أبدى كل منهما دهشته ولكنى كنت أستطيع أن أرى من وجهها السعيد المذنب أن هذه

الاجتماعات لم تكن وليدة الصدفة . قال لى الطبيب ونحن نلعب البليارد في إحدى الليالى :

— اقول ، لم لا تزور الآنسة دولشيكوف ؟ انت لا تعرف ماريا فيكتوروفنا ، إنها مخلوق ذكى رائع بسيط .

فأخبرته كيف لقينى ابوها المهندس فى الربيع ، فضحك الطبيب وقال :

— هذر . إن المهندس شيء وأما هى فشيء آخر ، والحق ايها الرفيق الطيب ، انك لا ينبغى أن تؤلمها ، اذهب والقها يوما . دعنا نذهب مساء غد . اتذهب ؟

أقنعنى . وفي المساء التالى لبست حلتى الصوفية ، وتهيأت فى شيء من الاضطراب لزيارة الآنسة دولشيكوف . لم يبد لى فى الخادم من التعالى والرهبة ، وفى الأثاث من الثقل . ما بدا لى صباح جئت أطلب عملا . كانت ماريا فيكتورفنا تتوقع مجيئى . فحيتنى كأنى صديق قديم ، وسلمت علىّ بقبضة يد حارة صديقة . كانت ترتدى ثوبا رماديا ذا أكمام واسعة ، وكان شعرها مصففا تصفيفة سميت حين أصبحت بعد سنة بدعا فى مدينتنا « بآذان الكلب » . كان الشعر مسرّحاً على الآذان ، مما جعل وجه ماريا فيكتورفنا يبدو أعرض مما هو ، فكانت ماريا جميلة رشيقة ، وإن لم تكن صغيرة السن . فمظهرها يجعلها فى الثلاثين ، وإن لم تعدُ الخامسة والعشرين .

قالت وهى تدعونى إلى الجلوس :

— يا للطبيب العزيز . كم أنا مدينة له بالشكر ، فلولاه لم تكن لتجيء . إنى أموت سأما . فقد ذهب والدى وتركنى وحدى . ولست أدرى ماذا أفعل بنفسى . ثم بدأت تسألنى أين أعمل . وكم أكسب ، وأين أسكن . سألتنى :

— أتنفق ما تكسبه عليك وحدك .

— أجل . قالت :

— أنت رجل سعيد . فان شر الحياة كله يأتى فيما يبدو لى ، من السأم والكسل ، والفراغ الروحي ، وتلك أشياء محتومة إذا كان المرء يعيش على حساب غيره من الناس . لا تظن أنى أتظاهر فأنا مؤمنة بما أقول . فالغنى يجلب البلادة والتعاسة . هم يقولون أكسب الأصدقاء بثروة حلال ولكن ليس هناك على العموم ما يمكن أن يسمى ثروة حلالا .

ونظرت إلى الأثاث وفى نظرتها تعبير جادّ بارد كأنما كانت تحصيه . ثم عادت تقول .

— إن للترف والرفاهة قوة ساحرة . وهما يغرران حتى بأقوى الرجال ارادة . وقد كنت أعيش أنا وأبى عيشة فقيرة بسيطة . وها أنت ذا ترى الآن كيف نعيش .

ثم قالت مع هزة من كتفيها .

— أليس ذلك غريباً ؟ إننا ننفق عشرين ألف روبل فى السنة . هنا فى الريف ! قلت :

— لا ينبغى أن تنظر الى الترف والرفاهة على أنهما ميزة محتومة لرأس المال والتعلم . فمن الممكن فيما يبدو لى أن نوحد بين رفاهة الحياة وبين العمل مهما يكن شاقا قذراً . ان أباك غنى ، ولكنه كان — على حد قوله — ميكانيكيا بل مجرد عامل تزييت .

فابتسمت وهزت رأسها فى تشكك وقالت :

— إن أبى يأكل الخبز مغموسا فى الجعة الرخيصة أحيانا . ولكنه يصدر فى ذلك عن النزوة وحدها .

ثم دق جرس فنهضت واستمرت تقول :

— ان الأغنياء المتعلمين ينبغى أن يعملوا مثل غيرهم . وإذا كان هناك من الترف شىء فينبغي أن يجد الجميع سبيلا اليه . ولا ينبغى ان تكون هناك امتيازات . على ان هذا القدر من الفلسفة يكفى . فحدثنى بشىء مطرب . حدثنى عن النقاشين . كيف هم ؟ مضحكون ؟

جاء الطبيب . وبدأت أتحدث عن النقاشين ، وأنا أشعر بضيق وأتكلم فى وقار واهتمام كأنى عالم إثنغرافى . وحكى الطبيب أيضاً بضع حكايات عن العمال . فكان يترنح ويصيح ويقع على ركبتيه ، وحين أخذ يمثل رجلا سكيراً ألقى بنفسه على الأرض . كان ذلك كله جميـــلا كأنه مسرحية . وقد ضحكت ماريا فيكتورفنا حتى بكت من الضحك

ثم لعب بلاجوفو على البيان ، وغنى بصوته العالى الدرجة . ووقفت ماريا قريبا منه تخبره بما يغنى وتصلح له أخطاءه حين يخطىء . قلت :

— لقد سمعت أنك تغنين أيضا . فصاح الطبيب :

— أيضا !! إنها مغنية بارعة ، فنانة . وأنت تقول : أيضا . حذار. حذار . فأجابت :

— لقد كنت جادة فى الدراسة ، ولكنى تركت ذلك الآن .

ثم جلست على مقعد منخفض وقصت علينا قصة حياتها فى بطرسبرج ، وأخذت تقلد المغنين المشهورين ، وتحاكى أصواتهم ولوازمهم ، وخططت لى وللطبيب فى مجموعتها رسمين لم يبلغا حد الجودة ولكن كانت فيهما ملامح منا . وكانت تضحك وتتندر وتغير قسمات وجهها تغييراً مضحكا . وكان ذلك كله أشبه بها من الحديث عن الثروة غير العادلة . وبدا لى أن ما قالته عن الثروة والترف لم يصدر عنها وانما كان مجرد محاكاة. إنها ممثلة هزلية بارعة . وكنت أقارنها بفتيات مدينتنا فلا تثبت المقارنة بها واحدة منهن حتى أنيوتا بلاجوفو الجميلة الرزينة .فقد كان الفرق بينهن شاسعا كالفرق بين الوردة البرية ووردة الحديقة .

وبقينا للعشاء ، فشرب الطبيب وماريا نبيذاً أحمر ، وشمبانيا . وقهوة مزجت بكونياك ، وأخذا يصفقان الأقداح ، ويشربان نخب الصداقة والفطنة والتقدم والحرية . ولا يسكران وإن علت وجهيهما حمرة ، وأخذا يضحكان لغير سبب حتى بكيا ضحكا ، وقد شربت أنا أيضا

من النبيذ الأحمر حتى لا أشذ عنهما . قالت الآنسة دولشيكوف :

— إن أصحاب العبقرية والطبائع الموهوبة من الناس يعرفون كيف يعيشون وكيف يسلكون فى الحياة طريقهم ، ولكن العاديين أمثالى لا يعرفون شيئا ولا يستطيعون شيئا . وليس أمامهم إلا أن يلقوا بأنفسهم فى تيار اجتماعي عميق ويسلموا له قيادهم . فال الطبيب :

— أمن الممكن أن نجد ما ليس موجوداً ؟

— إنه ليس موجوداً لأننا لا نراه .

— أترين ذلك ؟ إن التيارات الاجتماعية من خلق الأدب الحديث . وهى لا توجد عندنا .

وبدأ نقاش . فقال الطبيب :

— ليس عندنا الآن شيء من الحركات الاجتماعية العميقة ، ونحن لم نعرفها من قبل . لقد ابتدع الأدب الحديث جملة أشياء ، وابتدع فى حياة القرية مفكرين من العمال ، ولكن اذهبا فى قرانا جميعا فلن تجدا غير السيد (منخر الصفيق) فى سترته أو قفطانه الأسود يخطىء أربع مرات فى كلمة واحدة . ان الحياة المدنية لم تبدأ عندنا بعد . ولا يزال بيننا من الوحشية والعبودية ما كنا نعانيه منذ خمسة قرون مضت . أما الحركات والتيارات فكلها أشياء تافهة صبيانية قد مزجت بمصالح مبتذلة همها القرش ولا يستطيع المرء أن يحملها على محمل الجد . قد تظنين أنك كشفت عن حركة اجتماعية كبيرة . وقد تتحمسين لها وتكرسين حياتك

على الطريقة الحديثة لمثل مسألة تحرير الحشرات من العبودية ، وتحريم شرائح اللحم — وأنا أهنئك على ذلك يا سيدتى . ولكن علينا أن نتعلم ونتعلم ونتعلم ، وعندئذ سيكون عندنا وقت طويل للحركات الاجتماعية ، فإننا لم نصل الى مستواها بعد ، وأنا أقسم أننا لا نفهم عنها شيئا . قالت ماريا ڤيكتوروفنا :

— انك لا تفهم ولكنى أفهم. يالله ! كم أنت متعب الليلة !

— ان علينا أن نتعلم ونتعلم . ونحاول ان نجمع من المعارف مايمكن جمعه لأن الحركات الاجتماعية الجادة لاتكون الا قرينة المعرفة. وسعادة البشرية المقبلة تقوم على العلم. لنشرب نخب العلم. ثم قالت ماريا فيكتوروفنا بعد فترة من الصمت والتفكير العميق :

— ان هناك شيئا واحدا لا شك فيه. ان الحياة ينبغى أن تنظم على نحو آخر . فانها كانت الى الآن شيئا لا قيمة له . فلنترك الحديث عنها .

وحين غادرنا ماريا فيكتوروفنا كانت ساعة الكنيسة تدق الثانية. سألنى الطبيب :

— هل راقتك ؟ أليست فتاة حبيبة ؟

وتناولنا العشاء عند ماريا فيكتوروفنا يوم عيد الميلاد . وكنا نذهب لنراها كل يوم أثناء العطلة. ولم يكن هناك أحد غيرنا . وقد صدقت حين قالت انه ليس لها فى المدينة أصدقاء الا الطبيب وأنا . وكنا نقضى أكثر الوقت فى الحديث ، أو يجلب الطبيب كتابا أو مجلة فيقرأ لنا بصوت

عال . وقد كان الطبيب – آخر الأمر – أول رجل مثقف لقيته . وأنا لا أستطيع أن أصفه بسعة العلم ولكنه كان دائما سخيا بعلمه لأنه كان يريد غيره أن يعلموا . وحين كان يتحدث عن الطب لم يكن مثل أطبائنا المحليين ، بل كان حديثه يترك في النفس أثراً جديداً فريداً ،فكنت أحس انه يستطيع أن يكون عالما حقا لو شاء . ولعله الشخص الوحيد الذى كان له علىّ تأثير في ذلك الوقت . فقد اخذت حين القاه وحين أقرأ ما يعطيني من كتب ، اشعر بحاجة الى المعرفة اروّح بها مشقة عملي . وقد بدا لى غريبا ان لم اكن اعلم مثلا ان العالم كله مكون من ستين عنصرا . ولم أكن اعلم ما هوزيت الطلاء ، ولا ادرى كيف استطعت ان احيا دون معرفةهذهالأشياء . ثم لقد سَمَتْبىادبيا معرفتىبالطبيب .فقد اعتدت ان اجادله ، وان اتمسك بفكرتى ، غير انى بفضله اخذت ارى تدريجا ان كل الأشياءلم تكن واضحة عندى فحاولت ان احدد ما اعتقده قدر الطاقة حتى تكون اتجاهات ضميرى دقيقةلا يكتنفهاغموض . على ان الطبيب على علمه وظرفه وسبقه لأهل المدينة جميعافى الفضل لم يبلغ حد الكمال على نحو ما . فقد كان على شيء من الخشونة والغرورفى عاداته وفى تحايله على ان يجعل من الحديث مناقشة ، وحين كان يخلع معطفه ويجلس فى قميصه ويعطى الخادم منحة .كان يخيل لى دائما ان الثقافة لا تشغل منه الا جانبا . اما الباقى فلا يزال تتريا متوحشا .

وسافر بلاجوفو بعد العطلة الى بطرسبرج مرة اخرى . رحل فى

الصباح وجاءتني اختي بعد العشاء تزورني . فجلست فى صمت دون أن تخلع فراءها، وكانت شاحبة للغاية ساهمة النظرة . ثم اخذت ترتجف وكان يبدو انها تقاوم مرضا ما . قلت :

— لا شك أنك أصبت ببرد . فامتلأت عيناها بالدموع ، ثم نهضت وذهبت إلى كاربوفنا دون أن تقول لى كلمة ، وكأنى أهنتها . ثم سمعتها بعد قليل تتحدث فى نبرة التوبيخ المر .

— أيتها المربية ، لم عشت حتى الآن ؟ لماذا ؟ خبريني. ألم أضيع شبابى ؟ لقد قضيت خير أعوامى وليس لى عمل إلا إعداد قوائم الحسابات ؛ وصب الشاى وعد الكوابك ، دون أن أفكر مرة أن هناك شيئا خيراً من هذا فى الدنيا . مربيتى ! حاولى أن تفهمينى ! إن لى أيضا رغبات إنسانية وأنا أريد أن أعيش ؛ ولكنهم جعلوا منى خازنة بيت . إنها فظاعة ! فظاعة !

ثم قذفت مفاتيحها نحو الباب فسقطت فى غرفتى ترن . وكانت مفاتيح صوان الآنية ، والمخزن ، والقبو ، وصندوق الشاى ، وهى المفاتيح التى كانت امى تحملها . صاحت مربيتى العجوز فزعة :

— أوه ! أيها القديسون فى السماء ! أيها المباركون ! وحين أرادت اختى ان تذهب جاءت الى غرفتى لتأخذ مفاتيحها وقالت :

— عفواً ، ان هناك شيئا غريبا يساورنى فى هذه الأيام .

عدت فى إحدى الليالى متأخرا من عند ماريا فيكتوروفنا فوجدت شرطياً شاباً فى حلة جديدة جالساً فى غرفتى إلى جانب المنضدة يقرأ . قال وهو يقف وينصب قامته :

— أخيراً . هذه هى المرة الثالثة التى جئت فيها لأراك . فقد أمر المحافظ أن تذهب للقائه صباح غد فى التاسعة تماماً . فلا تتأخر .

ثم أخذ منى وعداً مكتوباً بتنفيذ أوامر صاحب السعادة وذهب . وقد كان لزيارة الشرطى هذه . ولدعوة المحافظ غير المتوقعة أسوأ تأثير على . فأنا منذ حداثتى انطوى على خوف من الجنود والشرطة وموظّفى المحاكم . وقد عذبنى القلق كأنى قد ارتكبت جريمة حقًا . ولم أستطع أن أنام . وانزعجت كذلك مربيتى وبروكوفى فلم يستطيعا النوم . وزاد الامور سوءا أن أذن مربيتى كانت تؤلمها فظلت تئن . وقد علا صراخها أكثر من مرة . وحين سمع بروكوفى أنى لا أستطيع النوم جاء إلى غرفتى فى هدوء ومعه مصباح صغير نحاس قريباً من المنضدة . قال بعـــد شىء من التفكير :

— ينبغى أن تأخذ قطرة من الكونياك . ففى وادى الدموع هذا لا تصح الامور الا إذا تناولت منه قطرة . ولو صُبَّ فى أذن أمى منه شىء لتحسنت حالتها كثيراً .

وفى الساعة الثالثة تهيأ بروكوفى للذهاب إلى المَسْلخ يحضر شيئاً من

اللحم . وقد ذهبت معه أشغل وقتى الى الساعة التاسعة إذ كنت أعلم أن النوم لن يمس جفونى حتى الصباح . ومشينا على ضوء مصباح . وقد سار وراءنا غلامه نيكولكا وهو صبى فى الثالثة عشرة ذو وجه تنتشر فيه نقط زرقاء ويبدو كأنه وجه قاتل . كان يسوق عربة ويستحث جوادها بصيحات نكراء . قال بروكوفى فى الطريق :

– ربما عوقبت عند المحافظ فلكل امرىء مرتبة ، وهناك مرتبة المحافظ . والأرشمندريت والضابط والطبيب ، ولكل مهنة مرتبة ، وأنت لا تحافظ على مرتبتك وهم لن يسمحوا لك بذلك .

كان المسلخ وراء المقبرة . وكنت إلى ذلك الحين لم أره إلا من بعيد . وهو مكون من ثلاث بنيات حولها سور قائم . فاذا كان الصيف وهبت الريح من ذلك الاتجاه انبعثت من المسلخ رائحة كريهة غالبة . لم أستطع أن أرى الحظائر حين دخلت الفناء . بل كنت أتلمس طريقى بين الخيول والعربات الفارغة والموسوفة باللحم ، وكان فى المكان رجال يمشون والمصابيح فى أيديهم وهم يصبون اللعنات فى اشمئزاز ، فشارك بروكوفى ونيكولكا فى اللعنات القذرة وشاع فى المكان طنين مستمر من السباب والسعال وصهيل الخيول .

وكنت أشم فى المكان ريح الجثث والروث . وكان الثلج يذوب وقد اختلط بالطين ، وبدا فى الظلام كأنى أخوض بركة من الدم .

وحين ملأنا العربة باللحم ذهبنا إلى حانوت الجزار فى السوق . وقد

بدأ النهار يبزغ وأخذ الطهاة بسلالهم ، والعجائز بدثرهن يتقاطرون واحداً بعد واحد . وقد أمسك بروكوفى بالشاطور فى يده . وارتدى مئزراً أبيض ملطخاً بالدم ، وأخذ يقسم أقساماً مخيفة . ويرسم الصليب وهو متجه شطر الكنيسة ، ويصيح حتى ليعم صياحه السوق، ويحلف أنه يبيع اللحم بثمنه بل بخسارة. وكان بروكوفى يغش فى الميزان والحساب، ويرى الطهاة ذلك ولكن صراخه كان يبهرهم فلا يعترضون وإنما يقولون عنه إنه رجل يستحق الشنق . وكان بروكوفى خليقاً أن يرسم فى بعض أوضاعه وهو يرفع شاطوره ويهوى به . وكان يردد باستمرار هذا الصوت « هاك » في غضب ، وكنت فى الحق أخشى أن يقطع رأس واحد من الناس أو يده .

بقيت فى دكان الجزار الصباح كله ،وحين ذهبت أخيراً إلى المحافظ كان لفرائى ريح اللحم والدم . وكنت فى حالة ذهنية اليق فيها للقاء دب وأنا لا احمل من السلاح إلا هراوة . لازلت اذكر السلالم الطويله ذات السجادة المخططة ، والموظف لابس الردنجوت ذى الأزرار اللامعة : الذى أشار لى فى صمت إلى الباب بكلتا يديه ، ودخل ليعلن قدومى . دخلت فى الردهة وكان أثاثها باذخاً وان تكن هى باردة خالية من الذوق . لا تبعث فى النفس الرضا ، بمراياها الطويلة الضيقة بين النوافذ ؛ وستائرها الصفراء الفاقعة على الشبابيك . فلم يكن يغيب عن المرء أن يرى أن الأثاث يبقى دائماً كما هو وان تبدل المحافظون . أشار الموظف لى

مرة أخرى بيديه الى الباب فتقدمت نحو مائدة كبيرة خضراء ، وقف إلى جوارها جنرال يحمل حول عنقه وسام فلاديمير . قال وهو يمسك فى يده بخطاب ويفتح فمه حتى صار مدوراً مثل دائرة .

— قد سألتك أن تحضر يا سيد بولوزينيف حتى أقول لك هذه الكلمات : إن أباك الفاضل قد طلب شفاهاً و بالكتابة إلى نقيب أشراف الاقليم أن تستدعى ويبين لك نبوُّ مسلكك عن لقب النبل الذى تتشرف بحمله . وقد رأى صاحب السعادة اسكندر يافلوفتش — بحق — أن سلوكك قد يكون هداما . ووجد أن الاقناع ربما لم يُجْدِ دون تدخل من جانب السلطات . ولذا فقد أسر إلىّ بما اعتزم فى أمرك . وأنا أوافقه على قراره.

قال هذا فى هدوء واحترام وهو منتصب القامة أمامى كأنى رئيسه ولم يكن تعبيره على صورة ما من الشدة . كان وجهه مترهلا متعباً قد علته التجاعيد ، وبدت تحت عينيه جيوب . وكان شعره مصبوغا . أما سنه فكان من الصعب أن يحدس المرء في مظهره أهو فى الخمسين أم الستين . وعاد يقول .

— أرجو أن تقدر تلطف اسكندر يافلوفتش حين اتصل بى اتصالا وديا غير رسمى . وقد دعوتك دعوة غير رسمية . لا على أنى الحافظ بل على أنى من المعجبين المخلصين لأبيك . وأنا أسألك أن تبدل سلوكك وان تعود الى تحمل الواجبات التى تناسب منزلتك والا فاتذهب إلى مكان

آخر لا يعرفك فيه أحد ، وهناك تستطيع أن تفعل ما تريد ، ونتقى نحن الأثر السيء للمثل الذى تضربه . وإن لم تفعل فسأضطر إلى اتخاذ أقسى التدابير .

ومر نصف دقيقة وهو يحلق فى وجهي وفمه مفتوح . سألنى :

— هل أنت نباتى ؟

— كلا يا صاحب السعادة . فأنا آكل اللحم .

ثم جلس وتناول وثيقة فانحنيت له وخرجت . ولما كان العمل قبل الغداء لا يغنى فقد ذهبت الى البيت وحاولت أن أنام . ولكننى لم استطع نتيجة الاشمئزاز الذى سببه لى المسلخ والحديث مع المحافظ . فذهبت أطوف حتى المساء وأنا أشعر بكآبة وانحراف . ثم ذهبت ارى ماريا فيكتوروفنا ، أخبرتها عن زيارتى المحافظ فنظرت إلى فى دهشة وكأنها لا تصدق ما أقول. ثم أخذت تضحك فجأة فى مرح وصخب من كل قلبها كما يستطيع خفاف القلوب البسطاء وحدهم أن يفعلوا . قالت صائحة وقد كادت تستلقى من الضحك وهى تنحنى على النضد :

— ليتنى أقول هذا فى بطرسبرج ! ليتنى أستطيع أن أخبر بذلك من فى بطرسبرج !

— ٩ —

كثر الآن لقاؤنا حتى لنلتقى مرتين فى اليوم أحيانا . فهى فى كل

يوم تقريبا تخرج بعد الغداء إلى المقبرة وتنتظرنى وهى تقرأ ما على الضرائح والصلبان من كتابات . وربما أتت أحيانا إلى الكنيسة ووقفت الى جانبي ترقبنى وأنا أعمل . كان جديداً عليها ومثيراً لها أن تحس الصمت ، وأن تلمس صناعة النقاشين والمذهبين ، وأن تشهد رزانة رادبش ، وأن ترانى لا أختلف فى ظاهر الأمر عن الشغالة الآخرين ، وأنى أعمل مثلهم ، فى صدرية وأحذية بالية ، وأنهم يخاطبوننى دون كلفة صاح بى مرة عامل يعمل فى أحد أبواب السقف وكانت حاضرة :

– ميشيل أحضر لى الرصاص الأبيض .

فأحضرته له وحين كنت أهبط السقالة وجدت ماريا قد خالجتها العبرات . ونظرت إلىّ مبتسمة . قالت :

– يا لك من حبيب .

وكنت أذكر دائماً منذ الطفولة ببغاء خضراء فرت من قفصها فى بيت أحد الأغنياء وظلت تهيم حول المدينة شهراً كاملا وتطير من حديقة إلى أخرى . وحيدة لا مأوى لها . وقد ذكرتنى ماريا فيكتوروفنا بتلك الببغاء . قالت ضاحكة :

ليس لى مكان أذهب إليه سوى المقبرة . فضيق من المدينة يدفع بى إلى البكاء . ولم أعد منذ حين أحتمل أولئك الذين يقررون ويفنّنون ويتناغون فى بيت أشوجين . وأختك حبيبة . والآنسة بلاجوفو تكرهنى لسبب ما والمسرح لا يستهوينى فماذا أفعل بنفسى ؟

كنت حين أزورها أحمل معى ريح الطلاء والنفط ، وكانت يداى ملوثتين ، وكان ذلك يروقها . فقد أرادت أن أجيئها بملابس العمل العادية ولكن وجودى كذلك فى غرفة استقبالها كان يربكنى ، فكنت ألبس حلتى الصوفية كلما ذهبت إليها وكأنى أرتدى لباساً رسمياً . ولم يكن ذلك يسرها . قالت لى مرة :

— يجب أن تعترف أنك لم تعتدْ بعدُ دورك الجديد. فإن لباس العامل يشعرك بالارتباك والحيرة . قل لى . أليس ذلك لأنك غير واثق بنفسك ولا راض عنها؟ أيرضيك حقاً هذا النقش الذى اخترته عملا لك ؟

سألتنى هذا السؤال فى مرح ثم قالت :

— أنا أعلم أن الطلاء يجعل الأشياء تبدو أجمل مما هى ولكن هذه الأشياء نفسها ملك الأغنياء . وهى من بعدُ تعدّ ترفا . ثم إنك كنت تردد القول بأن الانسان ينبغى أن يكسب قوته بيديه . ولكنك تكسب مالا لا خبزاً . لمَ لا تلتزم حرفية ما تقول ؟ يجب أن تكسب خبزاً ، خبزاً حقيقياً . فتحرث وتبذر وتحصد وتدرس أو تقوم بعمل متصل اتصالا مباشراً بالزراعة . كرعى الأبقار أو الحفر أو بناء المنازل . .

ثم فتحت خزانة كتب جميلة إلى جانب منضدة الكتابة وقالت :

— أنا أقول لك هذا كله لأنى سأطلعك على سرى . أنظر . هذه مكتبتى الزراعيه . وتلك كتب عن الأراضى الصالحة للزرع . وعن حدائق الخضر . وعن فلاحة البساتين . وتربية الماشية . وتربية النحل . وقد قرأتها

باشتياق ودرست نظرية كل شيء دراسة مستفيضة . وأنا أحلم بالذهاب إلى دوبشنيا متى بدأ شهر مارت (مارس) فالحياة هناك رائعة مدهشة ، أليس كذلك ؟ وسأقضي السنة الأولى أدرس العمل وأعتاده ، ثم أبدأ العمل الكامل في السنة الثانية دون رفق بنفسي. وقد وعدني أبي أن يمنحني دوبشنيا هدية ، وأنا أستطيع أن أتصرف بها كيف أشاء .

وأخذت تحلم بصوت عال . وقد احمر وجهها خفراً ، وامتزج ضحكها بدموعها عن حياتها في دوبشنيا . وكيف يمكن أن تستغرقها . وحسدتها فان مارت وشيك الحلول . والأيام تمضي ، وقد أخذ الثلج ينزلق عن السقوف في العصارى المشمسة المشرقة . وكانت في الهواء ريح الربيع . أنا أيضاً كنت أتوق إلى الريف .

رأيت لأول وهلة حين قالت إنها داهبة تعيش في دوبشنيا . أنها ستمضي وتتركني في المدينة وحيداً . خامرني الحسد لخزانة الكتب ، وما فيها من كتب عن الفلاحة . فأنا لا أعرف شيئاً عن الفلاحة . وهي لا تعنيني في شيء . وقد كدت أقول لها إن الفلاحة من عمل العبيد . ولكني ذكرت أن أبي قال شيئاً شبيهاً بذلك مرة فسكتّ .

وبدأ صوم الأربعين . وعاد المهندس فيكتور إفانتش من بطرسبرج وكنت بدأت أنسى وجوده . أتى دون توقع لمجيئه بل إنه لم يرسل برقية .

وحين ذهبت هناك في المساء كعادتي . وجدته يروح ويجيء في غرفة الاستقبال . بعد أن استحمّ . وقصّ شعره فبدا وقد نقص عمره

عشرة أعوام . كان يتكلم وقد ركعت فتاته إلى جانب حقائبه تخرج منها صناديق ، وزجاجات ، وكتباً ، وتناولها الخادمهم بأقل . وحين رأيت المهندس نكصت على عقبي دون وعى ، ولـكنه مد لى يديه ، وابتسم فكشفت ابتسامته عن أسنان بيض قوية كأنها أسنان سائق عربة . قال :

— هذا هو .. هذا هو ! أنا سعيد برؤيتك أيها النقاش العزيز . وقد أخبرتنى ماريا بأمرك كله ، وأشادت بذكرك . وإنى أفهمك جيداً . وأؤيدك بكل قلبي . ثم أخذنى فى ذراعه ومضى يقول :

— أجدر بك وأشرف أن تكون عاملا شريفاً من أن تلوث أوراق الحكومة ، وتحمل في قبعتك شارة . وقد اشتغلت أنا نفسى بيدى فى بلجيكا فكنت سائق قاطرة خمس سنوات . . .

كان يلبس سترة قصيرة وكوثين مريحين يدلف بهما وكأنه مصاب بداء الملوك . ويلوح بيديه ويدلكهما ؛ وهو يدندن ويهمهم ويهز كتفيه ؛ وقد أسعده أن يعود إلى حمام الدش الذى يحبه . قال أثناء العشاء :

— لا جدال في أن فيكم — معشر النبلاء — رقة ورحمة ، ولكن إذا مارس أحدكم العمل اليدوى أو حاول إنقاذ الفلاحين ، أصبح من الغلاة . وأنت منهم لأنك لا تحتسى الفودكا . وهل يكون ذلك إلا غلواً ؟

فشربت من الفودكا لأرضيه . وشربت نبيذا أيضاً . وأكلنا صنوفا من الأشياء اللذيذة التى جلبها المهندس معه : من جبن وسجق وفطائر ومخللات . وذقنا ما وصل فى غيابه من الأنبذة المستوردة من الخارج .

وكانت جيدة للغاية ، ولأمر ما كانت الأنبذة واللفائف تأتى المهندس من الخارج معفاة من الضرائب . كما كان يرسل اليه البطارخ دون مقابل . ولم يكن يدفع أجرا عن منزله لأن صاحب المنزل كان يورّد النفط للخط . وعلى الجملة فقد خيل إلى أنه هو وابنته يتمتعان بخير ما فى الوجود دون أن يتكلفا شيئا .

عاودت زيارة منزلهما ولكن سرورى بذلك كان أقل من ذى قبل. فقد كنت أحس فى حضرة المهندس بالانقباض والتقيد . ولم أكن أطيق عينيه الصافيتين البرئيتين . وقد ضقت بآرائه وبدت لى منطوية على الاهانة . وأثقل قلبي أن اذكر انى كنت إلى عهد قريب مرءوساً لهذا الرجل الأحمر المعلوف وانه كان يسيء معاملتى دون شفقة . وفى الحق أنه كان يضع يده حول خاصرتى ويربت على كتفى برفق ويؤيد طريقى فى الحياة ، ولكننى كنت أحس انه يحتقرنى كما كان يفعل من قبل ؛ ولم يكن يحتملنى إلا إرضاء لابنته . فلم أعد أستطيع أن اتكلم أو اضحك فى يسر كما كنت أفعل ، بل أخذت اظن فى نفسى خشونة الأخلاق ، واظل طول الوقت أنتظر أن يسمينى پانتلى كما كان يسمى خادمه پافل . كم ثارت نفسى كبرياء العامل الريفى ! أأذهب أنا . العامل ، النقاش . كل يوم إلى بيت هؤلاء الأغبياء الغرباء ، الذين كانت المدينة كلها تعدهم أجانب . فأشرب انبذتهم الفاخرة وآكل اطعمتهم الغريبة . لم استطع أن أريح ضميرى إلى هذا الأمر . فكنت حين أذهب لزيارتهم أجتهد فى مجانبة من

يمر بى فى الطريق ، وانظر اليهم شزراً كأنى من الفلاة حقاً ، وحين أعود من منزل المهندس كنت أحس بالخزى من شبعى .

على أن الوقوع فى الحب كان أخوف ما أخاف . فقد كانت فكرة ذهابى الى ماريا فيكتوروفنا فى المساء ، تخامرنى وأنا أسير فى الطريق أو أعمل أو أحادث رفاقى . وكان صوتها وضحكها وحركاتها لا تفارقنى . وكنت كلما تهيأت للذهاب إليها أطيل الوقوف امام مرآتى المكسورة اصلح ربطة عنقى ، فتبدو سترتى الصوفية نظيفة ، واتعذب ولكنى مع ذلك احتقر نفسى لاحساسى بالضآلة . وحين كانت تصيح بى من غرفة أخرى وتقول إنها لم ترتد بعدملابسها . وتسألنى أن أنتظر قليلا . واسمع حفيف ملابسها وهى تلبس — كنت أضطرب وأحس كأن أرض الغرفة تسوخ تحت قدمى . وحين كنت أشاهد امرأة فى الطريق كنت — وإن بعدت — أقارن بين جسمها وجسم ماريا . فكان يبدو لى أن كل نسائنا وفتياتنا ثقيلات . سخيفات الملبس . ليس لهن رواء . وكانت أمثال هذه المقارنات تثير فى نفسى إحساسا بالكبرياء . فماريا فيكتوروفنا تفضلهن جميعا . وفي الليل كانت الأحلام تجمع بينى وبينها .

وذات مرة أكلت أنا والمهندس إربيانا برمته. ثم ذكرت بعدعودتي ان المهندس دعاني مرتين ، رفيقى العزيز. وخطر لى انهما يعاملاننى وكأنى كلب كبير شقى ابعد عن سيده. وانهما يتسليان بى ، وأنهما خليقان أن يطرداني كما يطرد الكلب حين يصيبهما الملل منى . بدأت أشعر بالخزى

والألم وكدت أبكي كأنى أهنت . فرفعت عينى إلى السماء وأقسمت أن أكف ذلك كله .

فى اليوم التالى لم أذهب إلى بيت دولشيكوف . ولكن حين تقدم المساء وخيم الظلام ، وانهمر المطر أخذت أروح وأجىء فى شارع الأعيان الكبير . وأنا أنظر إلي النوافذ . كان كل من فى بيت أشوجين قد ناموا إلا ضوءاً واحداً منبعثاً من نافذة فى الطابق العلوى حيث كانت السيدة أشوجين العجوز جالسة على ضوء الشموع تطرز ، وتتخيل أنها تحارب الأوهام . وكان بيتنا مظلماً ، أما بيت دولشيكوف المقابل له ، فقد كانت النوافذ فيه مضاءة ، ولكنى لم أستطع أن أرى شيئا من وراء الستائر والأزهار . ظللت أروح وأجىء فى الشارع . وقد بللنى مطر مارت البارد. سمعت أبى يعود من النادى ويطرق الباب ، فلمع الضوء بعد قليل فى إحدى النوافذ ورأيت أختى تسير عجلة والمصباح فى يدها وهى تسوّى شعرها الكثيف بسرعة . ثم أخذ أبى يذرع غرفة الاستقبال . وهو يتحدث ويدلك يديه . وقد جلست أختى هادئة فى ركن من الغرفة . غارقة فى أفكارها لا تصغى اليه

ولم يمض وقت طويل حتى تركا الغرفة وأطفىء النور . ونظرت إلى بيتى فوجدته قد أظلم أيضاً . وفى المطر والظلام عرتنى وحشة قاتلة . وشعرت أنى ملقى إلى رحمة القدر . وبدت لى أعمالى وأطماحى كلها عبثا باطلا ، إذا قيست بالحاضر والمقبل من وحشتى وعذابى . وا أسفا إن

نشاط البشر وأفكارهم ليست مهمة مثل أحزانهم ! ودون دراية بما أفعل جذبت جرس باب دولشيكوف بكل قوتي وكسرته ، وأخذت أركض في الطريق خائفاً كأني صبي صغير ، أخشى وأظن أنهم سيخرجون إليّ على الفور وسيعرفونني . وحين وقفت ألقف أنفاسي عند نهاية الشارع لم أكن أستطيع أن أسمع إلا صوت المطر الساقط . وصوت أحد الحراس يقرع من بعيد صفيحة من الحديد .

وبقيت أسبوعا لا أذهب الى بيت دولشيكوف ، وبعت حلتي الصوفية ، وغدوت بلا عمل ، فعــدت مرة أخرى أتضور جوعا ، ولا استطيع أن أكسب في اليوم إلا عشرة كوبكات أو عشرين لقاء عمل كريه . كنت أتخبط في الوحل إلى ركبتي ، وأستنفد كل قوتي ، وأحاول أن أغرق ذكرياتي . وأن أعاقب نفسي بما أكلت من الجبن والمعلّبات في بيت المهندس . ولكنني ما كنت آوي إلى فراشي مبللا جائعاً حتى كان خيالي الجامح يجهد في رسم صور رائعة خلابة فأعترف وقد تملكتني الدهشة بأني أحب حبا حاراً . فأنام ملء عيني وأنا أحس أن الحياة القاسية قد منحت جسمي القوة والشباب .

وذات مساء بدأ الجليد يسقط في غير إبّانه . وأخذت الريح تهب من الشمال وكأن الشتاء قد استؤنف من جديد . ولما عدت من العمل وجدت ماريا فيكتوروفنا في غرفتي . ترتدي فراءها وقد دست يديها في قفازين . سألتني وهي تنظر الى بعينيها البراقتين اللامحتين :

— لمَ لا تأتى لزيارتى ؟

غمرنى السرور فوقفت جامدا إزاءها . كما فعلت أمام والدى حين أراد أن يضربنى . وكانت نظرتها ثابتة على وجهى . فرأيت فى عينيها أنها تدرك سر هزيمتى . عادت تقول :

— لمَ لا تأتى لزيارتى ؟ أنت لا تريد المجىء ! هأنذى قد أتيتك .

ثم نهضت واقتربت منى وقالت وقد امتلأت عيناها بالدموع .

— لا تتركنى فأنا وحيدة . وحيدة للغاية .

وأخذت تبكى وتقول وقد غطت وجهها بقفازها :

— انا وحيدة والحياة شاقة ؛ شاقة للغاية وليس لى فى الوجود أحد سواك . فلا تتركنى !

ثم ابتسمت وهى تبحث عن منديلها لتجفف به الدموع . وصمتنا لحظة ؛ ثم عانقتها وقبلتها . فانغرز دبوس قبعتها فى وجهى واسال الدم . ثم بدانا نتحدث كأنا رفيقان عزيزان من زمن بعيد . بعيد .

— ١٠ —

أرسلتنى بعد يومين إلى دوبشنيا . فسرنى ذلك سروراً لا يوصف . وكنت أضحك لغير سبب فى طريقى إلى المحكمة وفى القطار فتخيلنى الناس سكران . ولم تكن الأصباح تخلو من صقيع وجليد ولكن الطرق كانت آخذة فى الاظلام ؛ وفوقها الغربان تنعق .

فكرت أول الأمر أن أعد الجناح الجانبي المقابل لمسكن السيدة

شبرا كوف لاقامتي أنا وماريا . ولكن بدا لى أن الحمام واليمام قد اتخذه مسكناً له فتنظيفه يقتضى تحطيم أعشاش كثيرة . فكان علينا أن نقيم راضيين أو راغمين ، فى البيت الكبير . فى الغرف المزعجة بشبابيكها المزدوجة . كان الفلاحون يسمونه قصراً ، وكان به نيف وعشرون غرفة ، أما أثاثه فلا يعدو بيانا وكرسى طفل ملقى فى العليّة . ولو أن ماريا أتت بكل أثاثها من المدينة لما نجحنا فى أن نزيل عن المكان ما يشعر به من فراغ جليدى بارد . تخيرت ثلاث غرف صغاراً تطل نوافذها على الحديقة . وكنت أعمل من الصباح الباكر الى وقت متأخر من الليل فى وضع زجاج للنوافذ ، وتوريق الجدران . وسد ما فى الأرض من ثقوب وشقوق. وكان ذلك كله عملا سهلا مرضيا . وكنت من حين لآخر أجري الى النهر فانظر هل ذاب الثلج . وكنت أحلم طوال الوقت بعودة الزرازير . وفى المساء حين كنت أفكر فى ماريا كان يفيض لى شعور حلو شامل لا تعبر عنه الكلمات وأنا أصغى الى الفئران وإلى الريح العاصفة المقرقعة على السقف وكأن فى العلية غولا عجوزاً تسعل

كان الثلج سميكا ، وقد ثقل سقوطه فى آخر مارث ولكن سرعان ما ذاب وكأن سحراً أذابه ؛ فاذا ما حلت أوائل نيسان (ابريل) جاءت سيول الربيع دافقة . وسبقتها الزرازير تزقزق ، والفراشات الصفر تحوم فى الحديقة . وكان الجو رائعاً ، فكنت قبيل المساء من كل يوم أمشى الى المدينة لألقى ماشا . وكم كان جميلا أن أمشى على الطريق الأملس الذى

بدأ يجف وأنا حافى القدمين ! كنت أجلس فى منتصف الطريق ، وأنظر الى المدينة . وأنا لا أقوى على الاقتراب منها ، كان منظرها يثيرنى ، وكنت أتحير فى تصور موقف معارفى مى حين يعلمون بحبى . ماذا يمكن أن يقول أبى ، كان أشد ما يقلقنى أن حياتى أخذت تتعقد كثيرا . وأن مقاليدها قد خرجت من يدى . وأنها أخذت تهفو بى وكأنها تصعد منطاداً يعلم الله الى أين . كنت قد نفضت يدى من التفكير فى طريقة لكسب الرزق ، وفكرت — الحق أنى لا أدرى فيم فكرت .

اعتادت ماشا أن تقدم فى عربة ، فأجلس إلى جوارها ونسوقها إلى دوبشنيا معا فى تطلق وسعادة . أو ربما عدت إلى البيت بعد أن أنتظر الى الغروب وقد استولى على التعب والقنوط . حائراً فى سبب تخلف ماشا . فاذا ما وصلت الى البيت وجدت حبيبتى إلى جوار البوابأو الحديقة ، وتكون قد أتت فى القطار ومشت من المحطة . كم كانت رائعة ! كانت فى ثوبها الصوفى البسيط ، ومظلتها المتواضعة مع قوامها الملفوف الرشيق ، وأحذيتها الباريسية الغالية . ممثلة موهوبة تلعب دور الفتاة الريفية . كان من عادتنا ان نذهب إلى المنزل . ونفكر فى تنظيم الغرف والردهات ، وفى حديقة الخضروات وخلايا النحل . وكان لدينا أفراخ وبط وأوز نحبها لأنها أطيارنا التى نملكها . وكان عندنا حب شوفان وبرسيم وحنطة سوداء ، وبذور خضروات أعددناها للبذر . وكنا نطيل النظر اليها ونتخيل ما يمكن ان تنتجه من حصاد . وكان كل ما تقوله لى

ما شا غريبا فى حصافته وبراعته . تلك هي أسعد لحظات حياتى .

وتزوجنا بعـــد عيد الفصح بقليل فى كنيسة الابرشية بقرية كوريلوفـكا . وهى تبعد ثلاثة أميال عن دوبشنيا . وقد أرادت ماشا توخى البساطة فى كل شيء . فـكان أشبنة العرس غلماناً من الفلاحين . ورتل التراتيم شماس واحد . وعدنا من الـكنيسة في عربة صغيرة متداعية قادتها هى بنفسها . وكانت أختي الضيف الوحيد الذى جاء من المدينة . فقد أرسلت اليها ماشا كلمة قبل زواجنا بيومين . وكانت ترتدى ثوباً أبيض . وقفازين أبيضين . وكانت تبكى بكاء هادئا أثناء الاحتفال من فرط فرحها وانفعالها . وكان على وجهها تعبير أمومة . ينم عن طيبة لا تحد . لقد أسكرتها سعادتنا . فهى تبتسم وكأنها تتنسم عطراً حلوا . وحين نظرت اليهـا أدركت أن الحب . الحب الأرضى . كان فى عينيهـا أسمى شيء فى الوجود . وأنها كانت دائماً تحلم بالحب فى إسرار وخفر وان تـكن عاطفتها حارة ملتهبة . عانقت ماشا وقبلتها . وقالت لها عنى وهى لا تدرى كيف تعبر عن فرط نشوتها .

— إنه رجل طيب . رجل طيب جدا .

وقبل أن تغادرنا ارتدت ملابسها العادية ، وأخـذتنى الى الحديقة نتحدث فى هدوء . قالت :

— لقد شق على أبى أن لم تـكتب اليـه ، وكان ينبغى أن نسأله البركة . ولـكن قلبه ينطوى على سـعادة بالغة . وهو يقول إن هـذا

الزواج سيرفع من قدرك فى أعين المجتمع ، وإنك ستبدأ بتأثير ماريا فيكتورفنا فى النظر إلى الحياة نظرة أ كثر جدا . اننا لا نتحدث فى المساء إلا عنك ، بل لقد ذكرك أمس فقال :

ابننا ميشيل . وقد فرحت لذلك ؛ وأظنه قد فكر فى خطه، وأعتقد أن يضرب لك مثلا فى رحابة الصدر فيبدأ بالحديث عن الصلح . ولا يبعد أن يأتى يوماً لزورك . ثم رسمت الصليب على صدرى وقالت :

— حسناً ليرعك الله . ولتسعد . إن انيوتا بلاجوفو فتاه ذكية جدا . وهى تقول عن زواجك انه تجربة جديدة يمتحنك بها الله . حسناً . إن حياة الزواج ليست سروراً كلها ، بل فيها عذاب ايضا . وهذا امر لا يمكن تجنبه .

سرنا — انا وماشا — مع أختى قرابة ثلاثة أميال . ثم مشينا إلى البيت هادئين صامتين ، كأنما كنا نلتمس فى ذلك راحة لنا . وضعت ماشا يدها على ذراعى . ورف علينا السلام . فنحن لا نحتاج الى الحديث عن الحب ؛ وقد أصبحنا بعد الزواج ألصق وأعز ؛ وخيل الينا أن لن يستطيع التفريق بيننا شىء . قالت ماشا :

— إن أختك شخص عزيز حبيب، ولكن يبدو أنها عاشت معذبة لا بد أن أباك رجل رهيب .

فبدأت أحدثها بنشأتنا أنا وأختى . وكيف كانت طفولتنا شاذة مليئة

بالعذاب . وحين سمعت أن أبي ضربني منذ قريب ارتجفت وتعلقت بي وهي تقول :

— لا تزدني قولا . هذا فظيع . فظيع .

إنها الآن لا تتركني ، فنحن نشغل في البيت الكبير ثلاث غرف . فاذا حل المساء وضعنا رتاجا على الباب الذي يفصلنا عن القسم الخالي من البيت . كأنما يسكنه ساكن نجهله ونرهبه . كنت أصحو مبكرا مع الفجر ، وأبدأ في العمل فأصلح العربات . وأشق ممرات في الحديقة . وأحفر أحواضا للزهر ، وأطلي السقوف . وحين حل وقت بذر الشوفان اجتهدت أن أحرث . وأسحو الأرض . وأبذر الحب . وكنت أفعل ذلك باعتناء . ولا أتركه كله للعامل . وبدأت أحس بالتعب ، وأشعر بوجهي وقدمي تلتهب من المطر والريح الباردة الحادة . ولم يرقني العمل في الحقول . كنت لا أعلم شيئا عن الزراعة . ولم تكن الزراعة تشوقني . ولعل ذلك راجع إلى أن أجدادي لم يكونوا من عازقي الأرض بل كان الدم الذي يجري في عروقي دما مدنيا خالصا . كنت أحب الطبيعة حبا جما . وأحب الحقول والبراري والحدائق ، ولكن الفلاح الذي يقلب الأرض بمحراثه . وهو يصيح بحصانه التعس . وقد تمزقت ثيابه وابتلت وحدب كتفيه . كان يبدو صورة للقوة الوحشية الخشنة القبيحة . وكنت حين أرقب حركاته الغليظة لا أستطيع إلا ان أفكر في الحياة الأسطورية الخالية التي سبقت استخدام الانسان للنار . وكان الثور المتوحش الذي

يقود القطيع . والخيول التي تجفل في القرية ، تملؤني رعباً ، وكانت الكائنات الكبيرة القوية العادية من مثل كبش ذي قرون ، أو ذكر أوز ضخم ، أو كلب حراسة . تبدو لي رموزاً لقوة بربرية فظة . وكانت هذه الأوهام تقوى عندي حين يسوء الجو ، وتخيم السحب الثقيلة على الأراضي المحروثة السوداء . وحين كنت أحرث أو أبذر فيقف بعض الفلاحين وينظرون كيف أعمل . كان ذلك من شر ما ألقى ، فحينئذ كان ينقطع شعوري بأن عملي ضروري محتوم . ويبدو لي أني أضيع وقتي .

واعتدت أن أذهب خلال الحدائق والبراري إلى الطاحونة . وكان يديرها ستيفان وهو فلاح من كوريلوفكا ، جميل أسمر مجدول العضل ، ذو لحية سوداء . لم يكن يعنى بالعمل في الطاحونة . بل يظنه متعباً لا مجدي ، ولكنه كان يعيش في الطاحونة هربا من البيت . وكان في الأصل سرّاجا . ولذا لم يكن يخلو من ريح الدباغة والجلد . وهو لا يميل إلى الكلام ، بطيء ثقيل الحركة ، اعتاد أن يجلس على الشط أو عند باب الطاحونة ويغمغم ، أو . لوو . لوو . ، وكانت تزوره أحيانا زوجته وحماته تأتيانه من كوريلوفكا ، وكانتا شقراوين ناعمتين رقيقتين ، تنحنيان له في خضوع وتناديانه باستيفان بتروفتش . ولكنه لم يكن يجيب التحية بكلمة أو إشارة . بل يذهب حيث اعتاد أن يجلس ، ويغمغم في هدوء : (أو . لوو . لوو) ثم يخيم الصمت ساعة أو ساعتين ، فتتهامس زوجته وحماته وتنهضان

وتنظران اليه ترقبانه حتى ينظر اليهما ، فتنحيان له فى خشوع وتقولان فى صوت عذب :

— وداعا يا استيفان بتروفتش .

وتذهبان . فينحّى ستيفان ما تركتا له من صرة كعك أو قيص . ويزفر ويشير إلى ناحيتهما وهو يقول :

— أولئك النساء ! .

كانت الطاحونة تدار بكلتا العجلتين ليل نهار ، وكنت أعاون استيفان وأميل إلى ذلك العمل . وحين كان يذهب كان يسرنى أن أشغل مكانه .

— ١١ —

حلّ فصل الطرق الموحلة . بعد أن كان الجو ساحراً مشرقا دافئاً . فأخذ المطر ينهمر ، والبرد يشتد على طول أيار (مايو) ؛ وكان صوت أحجار الطواحين وسقوط المطر يبعث فى النفوس الكسل والنعاس. ويزيد هذا الشعور اهتزاز الأرض ورائحة الدقيق المنتشرة فى المكان كله . وكانت زوجتى تأتى مرتين كلّ يوم فى سترة فراء قصيرة ، وحذائين طويلين من المطاط ، وتردد هذه العبارة كل مرة :

— أتسمى هذا صيفاً . إنه أسوأ من تشرين الأول (أكتوبر) .

وكنا نشرب الشاى معا ، أو نعد الحساء ، أو نجلس ساعات طويلة فى صمت ونحن نظن أن المطر لن ينقطع. وقضت ماشا الليل فى الطاحونة

مرة ، حين ذهب ستيفان إلى السوق ، فلما صحونا لم نعرف الوقت لأن السماء كانت مابدة . ولكننا كنا نسمع صياح الديكة فى دوبشنيا، وزعيق سمان الماء فى البرارى . كان الوقت مبكراً جدا . وذهبت أنا وزوجتى إلى البركة ، وجذبنا الشبكة التى كان ستيفان قد وضعها أمامنا فى اليوم السابق فكان فيها فرخ كبير ، وأنكوش ينشب أظفاره فى غضب ، قالت ماشا :

— خل سبيلهما . دعهما يسعدان أيضاً .

بدا لى ذلك النهار طويلا جدا ، وكأنه أطول أيام حياتى ، إذ كنا قد صحونا جد مبكرين ، ولم يكن لدينا شىء نعمله . وعاد ستيفان قبل الغروب فرجعت إلى بيتى الريفى . قالت ماشا :

— لقد جاء أبوك اليوم إلى هنا .

— أين هو ؟

— ذهب ولم أقابله .

ولما رأت صمتى وحزنى لأبى قالت :

— ينبغى أن نخضع للمنطق ، فأنا لم أقابله وانما أرسلت اليه كلمة أطلب اليه فيها ألا يزعجنا مرة أخرى . وألا يعاود زيارتنا .

أسرعت خارج البوابة ، أجدّ فى السير نحو المدينة كى أترضى أبى . كان الطريق موحلا زلقا ، والجو بارداً . وقد حل بى الأسى لأول مرة منذ زواجى . وخطر لى وقد أتعبنى النهار الطويل أنى لم أكن أعيش كما ينبغى أن أفعل . وزاد بى التعب وأخذ يغلب على الضعف والهمود . ولم تكن

بى رغبة للحركة أو التفكير ، فبعد أن سرت حينا ، لوحت بيدى يائسا وعدت .

فى وسط الفناء وقف المهندس فى سترة جلدية ذات قلنسوة وهو يصيح :

— أين الأثاث ؟ كان هنا أثاث امبراطورى ، ورسوم ، وزهريات ، فلم يعد منها شيء . ما هذا ؟ لقد اشتريت المكان بأثاثه .

وقريبا منه وقف مويسى ، وكيل السيدة شبراكوف : يتحسس قبعته ، وهو فتى نحيف فى الخامسة والعشرين مجدر الوجه ، ذو عينين صغيرتين وقحتين . وكانت إحدى صفحتى وجهه أكبر من الأخرى كأنه أطالها بكثرة الرقاد عليها . قال فى غباء :

— أجل يا صاحب السعادة إنك اشتريت دون الأثاث . أنا أذكر ذلك بوضوح

فصاح به المهندس وقد احمر وجهه ، وأخذ يرتجف غضبا :

— اسكت .

فتجاوبت صيحته فى الحديقة .

— ١٢ —

كان يثير نى وأنا أشتغل فى الحديقة أو الفناء ، أن يقف مويسى ويداه وراء ظهره ، يحملق فىّ بعينيه الصغيرتين الوقحتين . حتى لأترك عملى وأذهب .

قال لنا استيفان أن مويسىّ كان عشيق السيدة شبرا كوف . وكنت قد لاحظت أَن الذين كانوا يقصدونها لمال ؛ كانوا يلجئون إلى مويسى أولا . وقد رأيت مرة فلاحاً من الوقادين تلوث جسمه كله بالسواد ؛ وهو يجثو عند قدمى مويسى . وحينما كنت أراه يقدّم المال بعد حديث هامس ؛ دون أن تعلم سيدته بشيء ، فأدركت أنه يقرض المال لحسابه .

اعتاد مويسى أن يصيد فى حديقتنا . بل تحت نوافذنا . وأن يسرق الطعام من مخزننا . ويستعير حيوانا دون استئذان . فكان ذلك يغضبنا ويشعرنا أن دوبشنيا ليست لنا . فتشحب ماشا وتقول :

— أينبغى أن نعاشر هذه المخلوقات ثمانية عشر شهراً أخرى !

وكان ايفان شبرا كوف ؛ الابن ، حارساً فى الخط ؛ يصيبه النحول والضعف فى الشتاء . فيسكر من كأس فودكا واحدة . ويحسّ البرد حين يتحول عن الشمس ، وكان يكره كسوة الحارس الرسمية ؛ ويحسّ الخزى منها . ولكنه كان يجد شغله مربحا إذ يسرق الشموع ويبيعها . وقد بعث فيه وضعى الجديد خايطاً من الدهشة والحسد والأمل الغامض فى أن يقع له مثل ما وقع لى . كان يتبع ماشا بعينى معجب . ويسألنى عن غذائى فى هذه الأيام . وعلى وجهه القبيح الهزيل تعبير حزين نشوان وهو يقبض أصابعه وكأنه يتلمس بها سعادتى . ويقول فى اضطراب . وهو يعاود إشعال لفافته . فقد كان حيثما وقف أحدث ربكة . إذ كان يستخدم علبة كبريت كاملة ليشعل لفافة واحدة .

— أقول ، أيهـــــا النفع القليل ، أقول . إن حياتى بغيضة للغاية . فكل جندى صغير يستطيع أن يهتف بى : يا حارس ، تعال . وعندى فى الخط من هؤلاء كثير . إن حياتى محطمت . وقد حطمتنى أمى . لقد سمعت فى القطار طبيباً يقول : إذا كان الأبوان فاســـدين ، أصبح أبناؤهما سكيرين أو مجرمين . وهذا صحيح .

جاء إلى الفناء مرة يترنح ، وعيناه تهيمان دون غاية ، وأنفاسه متقلة ، وهو يضحك ويبكى ، ويقول فى نوع من الخبل كلاما يثقل عليه نطقه لم أستطع أن أسمع منه إلا هذه الكلمات :

— أمى . أين أمى ؟

وكان بولول مثل طفل يبكى لأنه فقد أمه بين حشــد من الناس . فأدخلته الحديقة . وأرقدته تحت شجرة . وتناوبت أنا وماشا رعايته على مدى النهار والليل . كان مريعاً . وأخذت ماشا تنظر فى اشمئزاز إلى وجهه الشاحب المبلل . وتقول :

— أينبغى أن نعاشر هذه المخلوقات ثمانية عشر سنة أخرى ؟ هذا فظيع . فظيع .

وكم كلفنا الفلاحون من عناء ! وكم لقينا فى البدء — فى الربيع — من أشياء تخيب الأمل حين كنا نترق إلى السعادة ! فكرت زوجتى أن تبنى مدرسة . وأعدتها استين ولدا . فوافق مجلس المقاطعة على الرسم ، ولكنه اقترح أن تبنى المدرســة فى كوريلوفكا . وهى القرية الكبيرة

التى تبعد عنا ثلاثة أميال ، ثم إن مدرسة كوريلوفكا حيث كان يتعلم أولاد قرى أربع منها دوبشنيا . كانت عتيقة لاتفى بالحاجة . وقد تداعت أرضها حتى ليخشى الأطفال أن يدوسوا عليها في نهاية مارت أصبحت ماشا مديرة لمدرسة كوريلوفكا كما أحبت أن تكون . وفى أوائل نيسان (ابريل) عقدنا ثلاثة اجتماعات إقليمية . وأقنعنا الفلاحين أن المدرسة القديمة لم تعد لائقة . وأن من الواجب بناء مدرسة جديدة . وقد شهد هذه الاجتماعات أيضاً وخطب الحاضرين أحد أعضاء مجلس الاقليم ، ومفتش التعليم الأولى . وبعد كل اجتماع كان الناس يحتشدون حولنا ، ويطلبون دلواً من الفودكا . فتضيق أنفاسنا فى الجمع . ونعود إلى البيت ساخطين نحس شيئاً من الخزى . وأخيرا تبرع الفلاحون بأرض تقوم عليها المدرسة . وبنقل مواد البناء من المدينة فى عرباتهم . وما إن بذرت حبوب الربيع حتى أخذت العربات فى أول أحد تغادر كوريلوفكاودوبشنيا تحضر الآجر لوضع الأساس . كانت تذهب فى الفجر . وقد تقدم الليل . ويجىء الفلاحون سكارى ولكنهم يقولون ان التعب أضناهم .

ولبث المطر والبرد طوال أيار . وكأنما ذلك عن عمد منهما . ففسدت الطرق وعمق فيها الوحل . وكانت العربات فى عودتها من المدينة تعرّج . ويا للفزع . على فنائنا . فيظهر عند البوابة حصان . قد انفرج ما بين رجليه وأخذ بطنه الكبير يعلو ويهبط . ويستجمع قوته قبل أن يدخل الفناء ويزفر ، ثم تظهر عربة ذات أربع عجلات عليها حمل مبلل موحل من ألواح طولها

عشر ياردات . يسير إلى جانبه فلاح قد التف فى ثوبه خشية المطر . وأخذ يخوض البرك غير متبين مواطيء القدم . وقد وضع طرف ثوبه فى حزامه . ثم تظهر عربة أخرى بألواح وثالثة بعروق . ورابعة .. ويمتلىء الفناء أمام البيت تدريجا بالخيول والألواح والعروق وتتطلع أبصار الفلاحين . من رجال ونساء لفت رءوسهم . وحاقت أطراف أثوابهم — تتطلع إلى نوافذنا بنظرات قاسية . ويتصايحون . ويصرون على أن تنزل اليهم سيدة البيت ، ويسبون ويحلفون . ويقف موبسى فى ركن فيخيل الينا أن إحراجنا كان يسره . يصيح الفلاحون :

— لن نحمل أكثر مما حملنا . كدنا نموت تعبا . لتذهب ، هى فتنقل بنفسها .

كانت ماشا تشحب وتفزع وتظن أنهم قد يهاجمون البيت فى أية لحظة . فترسل اليهم نقوداً يشترون بها دلواً من الفودكا . فينقطع الضجيج — وتأخذ العروق الطويلة فى مغادرة الفناء وهى تتذبذب .

وعندما كنت أذهب لأرى الفناء . كانت زوجتى تضطرب وتقول

— الفلاحون ساخطون ، وقد يؤذونك . لا ابدا . سأذهب معك .

كنا نركب الى [illegible] فسألنا التجار المنيم . وكان التخطيط معداً لوضع الأساس . ولكن الماء [illegible] دمروا

[illegible]

وقد استغل الفلاحون حراجة موقفنا فطلبوا ثلاثين كوبكا عن الحمل . وإن قلت المسافة بين النهر الذى يجلب منــه الرمل وبين البناء عن ربع الميل وكنا فى حاجة إلى أكثر من خمسمائة حمل . ولم يخل الأمر من اختلافات لا تنتهى . ومشاحنة واستجداء لا ينقطع . أغضب ذلك زوجتى فأخذها مقاول البناء بتروف . وكان سيخاً فى السبعين ، من يدها وقال:

– اسمعى ما أقول . أحضرى لى رملا وسأجلب أنا عشرة رجال فأنهى العمل فى يومين . اسمعى لما أقول .

فأحضر الرمل . ولـكن مر يومان وأربعة أيام وأسـبوع . ومع ذلك فقد بقى هناك خندق يتثاءب أعد ليوضع فيه الأسـاس . صاحت زوجتى ثائرة :

– سأجن . يا لهم من أشقياء . يا لهم من أشقياء

وفى أثناء هــذه المضايقات كان فيكتور أفاناش يحضر لزيارتنا ويجلب معه أكياساً مملوءة بالأنبذة والمشهيات . ويقضى وقتاً طويلا فى الأكل ، ثم ينام على الشرفة ويشخر فيهز العمال رءوسهم ويقولون :

– إنه بخير !

ولم تـكن ماشـا تسر بزياراته . ولم تـكن نثق به . وان كنا نستشيره . فاذا صحا بعـد قيلولة عميقة منحرف المزاج . أخذ يتحدث فى استهزاء بشؤوننا المنزلية . ويأسف على شرائه دوبشنيا . وعلى ماجشمه من خسائر . وكانت ماشا المسكينة ... تشكو له

فيتثاءب ويقول إنه يجب أن يجلد الفلاحون . وكان يسمى زواجنا والحياة التى نحياها ملهاة ، واعتاد ان يقول إنها نزوة طارئة . قال لى :

— لقد سبق لماريا أن فعلت ذلك مرة ، فتخيلت نفسها مغنية أوبرا ؛ وهربت منى ؛ فكلفنى العثور عليها شهرين ؛ وقد أنفقت فى ذلك ياعزيزى ألف روبل على البرقيات وحدها .

كان قد كف عن وصفى بأنى من الغلاة ؛ وتسميتى بنقاش البيوت . ولم يعد يقرنى على حياة العامل . بل كان يقول :

— أنت سمكة غريبة : أنت شذوذ ، وأنا لا أتنبأ بشىء ولكن حياتك ستنتهى بكارثة .

أصبح نوم ماشا غباً ؛ فكانت تجلس إلى جوار نافذة مخدعنا تفكر . ولم تعد تضحك أو تتندر أثناء العشاء . وكنت أتعذب . فاذا أمطرت السماء نفذت كل قطرة إلى قلبي كأنها رصاصة . وودت لو ركعت على ركبتى أمام ماشا ، واعتذرت لها عن الجو . وحين كان الفلاحون يحتشدون فى الفناء متذمرين . كنت أشعر بأن ذلك ذنبى . كنت أجلس الساعات الطويلة فى مكان واحد لا أفكر إلا فى روعة ماشا . وكنت مدلها بحبها . أطير فرحاً بكل ما تفعل وتقول . وكانت هى تميل إلى أعمال البيت الهادئة . وكانت تهوى أن تقضى الساعات فى القراءة والدراسة . وكانت تدهشنا جميعاً بمعارفها عن الفلاحة ، وهى التى استقت معارفها من الكتب وحدها ، وكانت نصائحها نافعة دائما وإذا طبقت لم نعرف .

فشل . وكان لها من بعد الحسّ المرهف ، والذوق السليم ، والعقل الراجح الذى هو وقف على الصفوة ممن نشئوا نشأة عالية من الناس .

كان من المحزن حقاً لمثل هذه المرأة . بعقلها السليم المنظم أن تعيش فى الوسط المضطرب الذى كنا نعيش فيه بمشاغله التافهة .وهرائه البذىء وكنت ألحظ ذلك ولا أستطيع مثلها أن أنام . كنت أضرع إلى الفلاحين ألا يصيحوا . وأعطيهم الفودكا ، وأرشوهم. وأعدهم باجابة كل رغباتهم. وكم ارتكبت من مثل هذه الحماقات !

لم يعد المطر يسقط وجفت الأرض . فكنت أخرج فى الصباح إلى الحديقة ، إذ الطل يلمع على الأزهار ،والطيور والحشرات تتصايح،والسماء خلو من السحاب تالحديقة والمرية والنهر جميلة كاملة : لولا أن أذكر الفلاحين والعربات والمهندس . وكنت أركب أنا وماشا عربة ونطوف بالشوفان نرعى نموه . كانت تسوق وأجلس أنا فى الخلف . فأرى كتفيها المحدبتين قليلا ، وأرى النسم يعبث بشعرها . كانت تصيح بالمارة :

— الزم اليمين .

قلت لها مرة :

— كأنك سائق عربة .

— ربما إن جدى والد المهندس كان حوذياً .

ثم قالت ملتفتة إلى وقد بدأت تقلد الحوذى فى صياحه وغنائه :

— ألم تكن تعلم ؟

قلت فى نفسى وأنا أصغى اليها :

– الحمد لله . الحمد لله .

ثم أذكر الفلاحين والعربات والمهندس .

– ١٣ –

عاد الطبيب ملاجوفو يأتينا على دراجة . وأخذت أختى تتردد علينا. وعدنا نتحدث عن العمل اليدوى والتقدم . وعن الألف السنة الغامضة التى تنتظر الانسانية فى مستقبلها البعيد . ولم يكن الطبيب راضياً عن حياتنا لأنها كانت تقطع علينا مناقشاتنا . وقال : إنه لا يجدر بالرجل الحر أن يحرث أو يحصد أو يربى الماشية . وإنه سيأتى حين نكون فيه هذه الأشكال الأولية للصراع فى سبيل الوجود أمرا يترك للحيوان والآلات . فيتفرغ الرجال تماما للبحث العلمى . وكانت أختى تسألنى كل مرة أن نعود إلى البيت مبكرة . فإذا تأخرت أو قضت معنا ليلتها تألمت لذلك ألما شديداً . كانت ماشا تقول لها دائماً عاتبة .

أى طفل أنت والله هذا شىء مضحك للغاية

فتوافقها أختى قائلة .

اجل أنا أقر بأنه مضحك ولكن ماذا بيدى . وانا لا اقوى على تجنب شعور يشعرنى دائماً بأنى ارتكب إثما

آلمنى جسمى كله إبان التدرية . إذ لم أمارسها من قبل . فكنت في المساء أنام وأنا جالس فى الشرفة . فيضحكون منى . ويوقظوننى

ويجلسوننى للعشاء . وقد غلبنى النعاس . وأخذت أرى الأضواء والوجوه والأطباق من خلال سحابة . وأسمع أصواتهم دون أن أفهم ما يقولون كنت أبكر فى الصحو وآخذ منجلى وأذهب إلى المدرسة فأعمل يومى كله هناك

وكنت أحس أيام العطل أن زوجتى وأختى تخفيان عنى شيئاً . بل كان يبدو أنهما تتجنبانى . وكانت زوجتى رقيقة أعهدها معى دائما ولكنها كانت تنطوى فى نفسها على فكرة حائرة لم تحدثنى بها وليس من شك فى أن ضيقها بالفلاحين قد زاد . وأن الحياة أخذت تثقلها رويداً رويداً . ولكنها لم تعد تبثنى شكواها . بل أصبحت تقبل على الحديث مع الطبيب أكثر مما تقبل على . ولست أدرى لذلك سببا

كانت عادة الفلاحين أن يأتوا بعد العشاء إلى الحقل . فنقدم لهم الفودكا . حتى الفتيات كن يشاركن فى الشراب . ولكننا لم نبق على العادة . فكان الحاصدون والنساء يأتون إلى الفناء ويبقون إلى وقت متأخر من المساء فى انتظار الفودكا . ثم يذهبون وهم يسبون وهنا كان وجه ماشا يتقلص ، ونغرق فى الصمت . أو تهمس للطبيب ثائرة:

-- وحوش . . برابرة .

كان النازلون الجدد بالقرية لا يستقبلون استقبالا وديا ، بل بشىء من العداء . كالتلاميذ الجدد فى المدرسة . فكان الناس أول الأمر ينظرون إلينا على أننا أغبياء ضعاف العقول قد اشترينا الضيعة لأننا لم نكن نعرف

سبيلا أخرى لانفاق النقود . كانوا يضحكون منا.وكان الفلاحون يرعون ماشيتهم فى مرعانا، بل حتى فى حديقتنا . ويسوقون أبقارنا وخيولنا إلى القرية ثم يطالبوننا بتعويض . وكانت القرية كلها تأتى إلى فنائنا ، وتهتف معلنة أننا مسسنافى الحصاد جانب الأرض المشتركة التى لا نملكها . ولما كنا لا نعلم حدودنا بالدقة . فقد كنا نأخذ بقولهم وندفع غرامة . ثم ظهر من بعد أننا كنا على حق. وكانوا يقشرون أشجار الليمون الصغيرة فى غابتنا . وكان فلاح من دوبشنيا مراب يبيع الفودكا دون ترخيص . يرشو عمالنا ليساعدوه على غشنا بأفظع طرق الخيانة . فيستبدل بالجديد من عجلات عرباتنا ، عجلات قديمة . ويسرق محاريثنا ثم يعود فيبيعها لنا . وغير ذلك كثير . على أن شر الأمور جميعا كان بناء كوريلوفكا ، فهناك كانت النسوة يسرقن الألواح ، والآجر ، والاردواز . والحديد ليلا ، فلما أجرى الوكيل ومساعدوه التفتيش . فرض مجلس القرية على كل امرأة روبلين غرامة ، ثم سكر الوكيل ومساعدوه جميعاً بالمال . وحين كانت ماشا تطلع على شيء من ذلك كانت تقول للطبيب ولأختى :

— أى بهائم هؤلاء ! هذا فظيع . فظيع .

وقد سمعتها غير مرة تقول إنها آسفة لعزمها على بناء المدرسة ؛ فيحاول الطبيب أن يتدخل بقوله :

— يجب أن تفهمى ، أنك حين تبنين مدرسة أو تقومين بعمل خيرى ما ، فليس ذلك رعياً للفلاحين بل هو فى سبيل الثقافة والمستقبل

وكلما ساءت حال الفلاحين كان ذلك أدعى إلى بناء مدرسة . يجب أن تفهمي ذلك .

وكان صوته تعوزه الثقة بما يقول ، بل لقد خيل لى أنه يحقد على الفلاحين حقد ماشا عليهم .

ترددت ماشا وأختى على الطاحونة ، وكانتا تقولان هازلتين إنهما ذاهبتان لتلقيا نظرة على ستيفان لأنه فتى جميل . ويظهر أن ستيفان كان يقصر صمته وتحفظه على الرجال وحدهم ، فاذا صحب النساء تحرر وأفاض فى الكلام . ذهبت مرة إلى النهر استحم . فسمعت عن غير عمد حديثاً . وكانت ماشا وكلوباترا كلتاهما فى ثوب أبيض ، قد جلستا على الشط فى ظل صفصافة وارفة . ووقف ستيفان قريباً منهما يقول ويداه وراء ظهره :

— ولكن هل الفلاحون من البشر؟ كلا . إنهم — وعذرا — وحوش بهائم ؛ لصوص ، ما هى حياة الفلاح ؟ طعام وشراب ؛ وصراخ من أجل غذاء أرخص . وصياح في الحانات ، فى غير حديث مهذب ، أو خلق أو أدب . إنه ليس سوى بهيم جاهل يعيش فى القذارة . وتعيش زوجه وأولاده فى القذارة . وينام فى ملابس العمل ، ويتناول البطاطس من الحساء بأصابعه ، ويشرب الجعة بخنافسها لأنه لا يريد أن يشق على نفسه باخراجها . فاعترضت أختى:

— فقرهم هو السبب .

— أى فقر ؟ إنه يعانى نوعاً من العسر دون شك ، ولـكن هنالك فرقا بين عسر وعسر ياسيدتى . فالرجـــل السجين أو الأعمى أو المبتور الساقين — كل هؤلاء معذور خليق برحمة الله ، ولكن الرجل الحر الذى سلمت له حواسه ، فصحت له عينان ويدان وعافية ، ماذا يبغى بالله بعد هذا ؟ الأمر ياسيدتى محزن . إنه الجهل لا الفقر . فاذا حاولتم أيها الخيرون المتعلمون أن تتفضلوا فتساعدوه أنفق مالكم فى السكر كخنزير . أو فعل ما هو أنكى ففتح بمالكم حانة وبدأ يسلب الناس أموالهم . تقولين الفقر ؟ فهـل يعيش الفلاح الغنى عيشة أرقى رقياً ما ؟ إنه يعيش مثل الخنزير أيضاً . إنه — وعذراً — جلف مهوش ، غبى بطين . ذو وجه أحمر منتفخ ، إنه يجعلنى أود لو ضربته على عينه . ذلك الوغد . انظرى إلى لاريون فى دوبشنيا . فهو غني ولكنه مع ذلك يقشر الأشجار في غابتكم كما يفعل الفقراء تماما . وهو حيوان بذىء اللسان . وأولاده مثله فى البذاءة فاذا سكر ارتمى فى الوحل ونام . إنهم جميعا ياسيدتى شىء لا قيمة له . والإقامة معهم فى القرية هى الجحيم بعينه . أنا لا أطيق حياة القرية ، وكم أشكر الله رب السماء أن يسر لى غذائى وكسائى . وجعلنى رجلا حراً أنا أستطيع أن أعيش حيث أحب . وأنا لا أريد أن أحيا فى القرية ، ولا يستطيع أحد أن يفرض علىّ الحياة فيها . يقولون : إن لك زوجة ؟ ويقولون يجب أن تعيش فى بيتك مع زوجتك : لم ؟ إننى لم أبع نفسى لها .

سألت ماشا :

— قل لى ياستيفان ، هل كان زواجك عن حب؟

فأجاب ستيفان مبتسما :

— أى حب هناك فى القرية ؟ إذا شئت أن تعلمى يا سيدتى فهذا هو زواجى الثاني . ولست فى الأصل من كوريلوفكا بل من زاليجوش. وقد جئت كوريلوفكا حين تزوجت . لم يشأ والدى أن يقسم الأرض بيننا ، وكنا خمسة . فنزلت عند رغبته ، وانفصلت عنه وذهبت أعيش فى قرية أخرى مع أهل زوجتى . وقد ماتت زوجتى الأولى شابة .

— وبأى علة ماتت ؟

— الحماقة . كانت تجلس وتبكى . تبكى دائما دون سبب حتى قتلها البكاء . كانت تشرب نقيع الأعشاب لتزيد جمالها ، ولكن ذلك قد إتلف حشاها دون شك . وكيف كانت زوجتى الثانية فى كوريلوفكا؟ امرأة قروية فلاحة . لا غير . غششت حين خطبتها ، إذ رأيتها فتاة شابة حسنة المنظر نظيفة . وكانت أمها على حظ من النظافة : تشرب القهوة ، فكانت نظافة الأسرة أهم باعث لى على الزواج . وفى اليوم التالى جلسنا للعشاء فطلبت من حماتى أن تحضر لى ملعقة ، فجاءتنى بواحدة ولكني رأيتها تمسحها بإصبعها . قلت فى نفسى ، هذه نظافتهم إذن ؛ أقمت معهم سنة ثم رحلت .

ثم قال بعد فترة صمت :

— لعلى كنت أصيب فى زواجي بفتاة مدنية . يقولون إن الزوجة

عون لزوجها . ولكن ما حاجتي إلى عون ؟ إنني أستطيع أن أدبر أمرى بنفسي ولكني أريد امرأة تحدثني حديثاً رشيداً هادئاً ، بدل أن تقضى الوقت كله تضحك (هى . هى . هى) ما قيمة الحياة إذا خلت من حديث عذب ؟

وقطع استيفان كلامه فجأة . وعاد إلى لازمته الكئيبة الرتيبة . « أو . لو . لو » كان معنى ذلك أنه لحنى .

وكثر تردد ماشا على الطاحونة . وكان واضحا أنها تستمتع بأحاديثها مع استيفان . كان يشتم الفلاحين عن اخلاص واقتناع وذلك ما جذبها اليــــــه . فاذا عادت من الطاحونة صاح في إثرها الأبله الذى يعنى بالحديقة :

— يالاشكا . مرحى يايالاشكا .

ونبحها كما ينبح الكلب : باو . باو . فتقف وتحدق فيه . وكأنها تجد فى نباح الأبله جواباً لتفكيرها . وربما أثار من انتباهها ما يثيره سباب ستيفان . وتدلف الى البيت فتجد فى انتظارها أنباء سيئة . فأوز القرية قد أفسد الكرنب فى حديقة المطبخ مثلا ، أو أن لاريون سرق الأعنة . فتهز كتفيها مبتسمة وتقول .

— ما عسى أن ننتظر من مثل أولئك الناس ؟

كانت محنقة قد أخذت تتجمع فى نفسها ثورة . أما أنا فقد بدأت آلف الفلاحين . وجدت أكثرهم ذوى مزاج عصبي وحمية ، هم قوم حد من

خيالهم ، جهلاء ، وأفقهم ضيق قاتم . تشغل عقولهم أبداً فكرة واحدة هى الأرض السمراء . والأيام القاتمة ، والخبز الأسود . هم قوم مردوا على الخبث . ولكنه خبث الطير الذى لا يعدو أن تخفى رءوسها وراء الأشجار . إنهم لا قدرة لهم على التفكير . لم يكونوا يأتون الينا من أجل العشرين روبلا يكسبونها من التذرية ، وانما من أجل نصف دلو من الفودكا . وان كانوا يستطيعون أن يشتروا بالعشرين روبلا أربعة دلاء. حقاً ، لقد كانوا قذرين ، معربدين ، أنذالا . ولكن ذلك لم يكن لينفى شعور المرء بأن حياة الفلاح جملة سليمة فى جوهرها . ومهما يبد الفلاح غليظا وحشياً وهو يتبع محراثه العتيق ، ومهما يسمّم نفسه بالفودكا ، فان نظرة اليه عن قريب تشعر المرء بأن هناك شيئاً حياً مهماً فيه، شيئاً ينقص ماشا والطبيب . أن الفلاح يعتقد مثلا أن الحقيقة أهم شىء على الأرض. وأن الحقيقة منجاته ومنجاة كل إنسان . ولذلك فهو يحب العدل فوق كل شىء على الأرض . كنت أقول لزوجتى إنك لترين القذر على الزجاج . ولكنك لا ترين الزجاج نفسه . فتصمت أو تردد شأن ستيفان . (أو لو . لو .) . وحين كانت وهى الممثلة الطيبة الذكية تشحب غضباً، وتخطب الطبيب بصوت مرتعش عن السكر والنذالة كان عماها يحيرنى ويفزعنى . كيف أمكن أن تنسى أن أباها المهندس كان يشرب ويثقل فى الشراب ، وأنه جمع المال الذى اشترى به دوبشنيا بألاعيب جريئة غير شريفة ؟ كيف أمكن أن تنسى ؟

وكانت أختي هي الأخرى تعيش منطوية على أفكارها الخاصة التي تخفيها عني. وكثيرا ما كانت تجلس تتهامس مـــع ماشا. فاذا قاربتها ازورت عني وبدا في عينيها الألم وامتلأتا بالضراعة. كان واضحاً أن شيئاً ما يخالج نفسها. شيئاً يخيفها أو يخجلها. كانت تتعلق بماشا لتجتنب لقائي في الحديقة أو الانفراد بي. فلم أكد أجـــد فرصة للحديث معها إلا وقت الغداء.

وذات مساء دخلت الحديقة في هدوء وأنا عائد من المدرسة. كانت الظلمة قد بدأت تخيم، وكانت أختي. دون أن تلمحني أو تسمع وقع أقدامي، تدور حول شجرة تفاح عتيقة كثيرة الفروع. في غير ما نأمة وكأنها سبح. كانت في ثوب اسود تجيء وتروح. وتجيء وتروح. وعيناها إلى الأرض. وسقطت تفاحة من الشجرة. فارتاعت للصوت ووقفت وضغطت بيديها على صدغيها. فذهبت اليها. وفي فيض من الحنان غمر قلبي فجأة اخذتها من كتفيها وقبلتها. وقد امتلأت عيناي بالدموع. وذكرت لأمر ما أمنا وطفولتنا. سألت:

— ما الأمر؟ أنت تتعذبين. وقد لاحظت ذلك منذ أمد بعيد. خبريني ما الأمر؟ فتمتمت وهي ترتعد:

— انا خائفة سألت:

ما بالك؟ كوني صريحة بالله!

— سأكون. سأكون صريحة. سأخبرك بالحقيقه كلها، إن إخفاء
شيء عنك امر صعب مؤلم.
ومضت تقول فى همس :
— ميشيل. إنى أحب. إننى أحب. إنى سعيدة ولكنْ لِمَ أنا
خائفة ؟
وسمعت وقع حطي. ثم ظهر الطبيب بلاجووو بين الأشجار. كان
يرتدى قميصاً حريريا. وحذاءين طويلين. وكان واضحا أنهما قد اتّعدا على
اللقاء عند شجرة التفاح. وحين رأته ألقت بنفسها فى ذراعيه مبهورة ،
وهى تصيح صيحة معذبة كأنه يؤخذ منها.
— ڤلاديمير. ڤلاديمير.
والتصقت به وهى تحدق فيه باهمة. وفى تلك اللحظة لمحت ما أصابها
من نحول وشحوب. ولاحظت ذلك خاصة من ياقتها الشفافة. وكنت
أعرفها منذ سنين. فقد أصبحت الآن فضفاضة حول عنقها الناحل. أُخِذ
الطبيب ولكنه تمالك نفسه لتوّه وقال وهو يمسح شعرها :
— كفى. كفى. فيمَ انفعالاتك هذا كله ؟ أنت ترين أنى قد أتيت.
صمتنا وقتا. ينظر كل منا إلى الآخر فى خجل ثم ذهبنا جميعا وسمعت
الطبيب يقول :
— إن الحياة المتمدنة لم تبدأ عندنا بعد. والشيوخ يتعزون بقولهم
إنه إذا لم يكن هنالك شيء منها الآن. فقد وجد فى العقدين الخامس

والسابع ، وذلك عزاء يرضى الشيوخ . أما نحن فلا زلنا بعد شبانا لم يتطرق إلى أذهاننا انحلال الشيخوخة ، ولا نستطيع أن نتعزى بمثل هذه الخيالات . قد وجدت روسيا سنة ٨٦٢ ولكن روسيا المتحضرة كما أفهمها لم توجد بعدُ .

لم أكن لأهتم بما يقول الطبيب ، فقد بدا لى لأمر ما أن وقوع أختى فى الحب ومشيها إلى جانب رجل غريب تضع يدها على ذراعه ، وتنظر اليه فى حنان، أمر غريب جداً لا يمكن تصديقه. كانت أختى وهى الفتاة الفقيرة الفزِعة ، الحيية الشقية ، تحب رجلا متزوجا وله أولاد . فاض بى الاشفاق لسبب لا أفهمه ، وكرهت محضر الطبيب ، وحرت فيما يمكن أن ينجلى عنه هذا الحب .

— ١٥ —

ركبت أنا وماشا إلى كوربلوفكا لافتتاح المدرسة. قالت ماشا وهى تنظر حولها .

— الخريف . الخريف . الخريف .

وكان الصيف قد مضى . وولّت الأطيار . ولم يعد مخضراً إلا الصفصاف . اجل . مضى الصيف وكانت الأضاحى لا تزال مشرقة دافئة ، وإن بردت الأمسيات . وكان الرعاة قد بدأوا يلبسون فراءهم ، والطلّ لا يجف طول اليوم على شجر الأصطُر فى الحديقة . وكان المرء يسمع أصواتاً حزينة يستحيل عليه أن يتبين أهى أصوات مصاريع

نوافذ تصر على مفاصلها الصدئة . أم نعيق كراكى طائرة . ومع ذلك فكم كان المرء يحس إحساساً قويا بالحبور والرغبة فى الحياة !

قالت ماشا :

مضى الصيف . والآن نستطيع أن ننظر فى حسابنا ، فقد تحملنا مشقة العمل والتفكير ، ونحن الآن أقدر عليهما ، فلنهنىء أنفسنا بكل ذلك . ولكن هل كان لنجاحنا أثر ظاهر فى الحياة التى تحيط بنا؟ هل أفاد إنساناً واحداً ؟ كلا . فالجهل والقذارة والسكر ونسبة الموتى العالية بين الأطفال — كل شىء لا زال كما كان . ولم تتحسن حال شخص واحد ، بما حرثت وبذرت أنت، وما أنفقت أنا من مال ، وقرأت من كتب . من الواضح أن الأمر لا يعدو أننا عملنا لأنفسنا . ووسعنا عقولنا .

كنت أرتبك لمثل هذه المناقشات ، ولا أدرى فيم أفكر . فات .

— لقد أخلصنا من البدء إلى النهاية . وإذا أخلص المرء فالحق معه .

— من ينكر ذلك ؟ لقد كنا على حق . ولكن طريقنا إلى هذا الحق كان خطأ . خذ طرق معيشتنا نفسها أولا . أليست خطأ ؟ فأنت تريد أن تنفع الناس ، ولكن مجرد شرائك لضيعة يجعل ذلك مستحيلا . ثم إنك حين تعمل وتلبس وتأكل مثل الفلاحين يكون ذلك منك تقريراً وموافقة لهم على ملابسهم الخشنة . ومنازلهم الفظيعة . ولحاهم القذرة. ومن جهة أخرى انفرض أنك عمرت وقتا طويلا ، طويلا جداً . حياتك

كلها . فحصلنا فى النهاية على بضع نتائج عملية . فالى أى شيء يمكن أن تؤدى نتائجك ؟

ماذا يمكن أن تفعل إزاء مثل هذه القوى الأولية العامة من الجهل والجوع والبرد والانحلال . قطرة فى محيط . إن الأمر يحتاج وسائل أخرى للكفاح . وسائل ضرورية قوية . جريئة سريعة . إنك إذا شئت ان تكون نافعاً وجب أن تترك دائرة النشاط العادى الضيقة ، وتحاول أن تتصل مباشرة بالكتل الشعبية . وأنت محتاج قبل كل شيء إلى دعاية قوية . صاخبة . لم كان الفن والموسيقى مثلا . على ما نرى من القوة والانتشار ؛ لأن الموسيقى أو المغنى يؤثر مباشرة فى آلاف .

الفن - يا لروعة الفن ! - وتطلعت إلى السماء ذاهلة وقالت :

- إن الفن يمنحك أجنحة تحملك بعيداً . بعيداً . فاذا سئمت القذر والمصالح الدنيا . وغضبت وحنقت وسخطت. وجدت الراحة والرضا فى الجمال وحده .

وحين اقتربنا من كوريلوف كان الجو لطيفاصحواً بهيجاً .وكان الفلاحون يدرسون فى الأفنية فتترف رائحة القمح والتبن. وكانت أشجار الفاكهة وراء الأسوار قد أخذت فى الاحمرار . وكان كل ما حولها أحمر أو ذهبيا . وفى برج الكنيسة كانت الأجراس ترن .وكان التلاميذ يحملون الأياقين فى طريقهم إلى المدرسة . وهم ينشدون ترنيمة .

(أيتها العذراء . أنت من يحمينا . كم كان الهواء صافيا ، وكم كانت الحمامات تعلو فى السماء !

وأقيمت صلاة عامة فى حجرة المدرسة . ثم أهدى الفلاحون إلى ماشا أيقونة وأعطاها فلاحو دوبشنيا رغيفا كبيرا . وممسحة مذهبة . بدأت ماشا تبكى . وقال فلاح شيخ وهو ينحنى لها .

- نرجو المعذرة إذا كنا قد خرجنا فى القول أو تذمرنا .

وحين ركبنا عائدين كانت ماشا تنظر وراءها إلى المدرسة ، وكان السقف الأخضر الذى طليته يلمع فى ضوء الشمس . وقد لبثنا نراه فترة طويلة . كنت أحس أن نظرات ماشا كانت نظرات وداع .

— ١٦ —

بدأت فى المساء تذهب إلى المدينة . وقد كثر ترددها فى الأيام الأخيرة عليها . ومبيتها هناك . وكنت فى غيبتها لا أستطيع أن أعمل . بل أشعر بأن قلبى يخذلنى . ويبدو فناؤنا الكبير كئيبا . بغيضاً موحشاً وتتجاوب فى الحديقة أصوات تنذر بالسوء . ولا يعود البيت والأشجار والخيول فى عينى ما كانا « لنا » .

ولم أكن أغادر البيت . بل كنت أقضى الوقت كله جالساً إلى مكتبتها . بين كتبها فى الفلاحة والزراعة . تلك الكتب التى حرمت العطف . ولم يعد مرغوبا فيها . كانت تطل على خجلة من خزانة الكتب وكنت أقضى الساعات الطويلة فتدق السابعة والثامنة والتاسعة . ويزحف

ليل الخريف على النافذة ، أسود حالكا كالنشور ، وأنا أتأمل قفازاً عتيقاً لها ، أو القلم الذى تكتب به ، أو مقصها الصغير . لم أكن أعمل شيئاً ، بل تبينت أن ما كنت أعمله من قبل من حرث وبذر وقطع للأشجار ، إنما كان تحقيقاً لرغبتها . ولو طلبت منى أن أنظف بئراً ، وأقف والماء يغمرنى إلى خصرى ، لذهبت أنظفها ولا أحاول أن أرى هل البئر في حاجة إلى تنظيف . أما الآن وهى بعيدة فقد بدت لى دوبشنيا فوضى : بقذارتها وأكوامها ونوافذها المصطكة ، واللصوص المتنمرين حولها ليل نهار ، لا يجدى العمل فيها أى جدوى . ولماذا أعمل الآن ؛ ولم أعنى نفسى بالمستقبل ، وأشغل به ، وأنا أحس بالأرض تسوخ تحت قدمى . وأن وجودى فى دوبشنيا كان عبثاً . وأنى كان ينتظرنى من المصير . ما لقيته كتب الفلاحة ! أوه كم ، تعذبت فى الليل ؛ فى الساعات الموحشة . حين كنت أرقد ، وأنصت فى قلق كأنى كنت أتوقع فى كل لحظة أن يصيح لى صائح أن وقت رحيلى قد حان . ولم أكن آسف على ترك دوبشنيا . بل كان أسفى على حبى الذى خيل لى أن خريفه قد بدأ . أى سعادة غامرة في أن يكون المرء محباً محبوبا ! وأى شناعة فى أن يحس المرء ببدء تدهوره من ذلك البرج الشامخ !

عادت ماشا من المدينة مع مساء اليوم التالى ، وكان يزعجها أمر ما . ولكنها أخفته عنى ؛ واقتصرت على أن تقول لى :

- لمَ وضعت مصاريع الشتاء على النوافذ ؟ إن وجودها يجعل الجو

خانقاً ففتحت نافذتين ؛ ولم تكن لنا شهية للطعام ولكننا جلسنا وتعشينا . قالت :

– إذهب فاغسل يديك فرائحة الجلاء تفوح منك .

وكانت قد أتت معها من المدينة ببعض المجلات المصورة الجديدة فأخذنا نقرأها بعد العشاء . وكان بها ملاحق من لوحات الأزياء ونماذجها . فألقت ماشا عليها نظرة خاطفة وتركتها لتعود فتنظر فيها من بعدُ نظرة فاحصة . على أن أحد الأثواب وكان جزؤه الأسفل واسعاً له شكل الجرس . وردناه كبيران ، قد شاقها فتأملته لحظة في جد وانتباه وقالت :

– لا بأس بهذا . قلت :

– أجل إنه يلائمك كل الملاءمة . . كل الملاءمة .

وأعجبت بالثوب لا لشيء إلا لأنه راقها . وعدت أقول فى حنان :

– هو ثوب فاتن حبيب . يا حبيبتى ، وفاتنتى ماشا . يا عزيزتى ماشا ..

وبدأت الدموع تقطر على لوحة الأزياء . همست :

– فاتنتى ماشا . يا عزيزتى . ياحبيبتى ماشا .

ثم ذهبت ترقد . وبقيت ساعة ساكنا أنظر إلى الصور . صاحت من المخدع :

– كان ينبغى ألا تفتح النوافذ . أخشى أن نصاب ببرد . أنظر كيف تندفع الريح الينا .

كنت أقرأ فى المتفرقات عن تحضير المداد الرخيص ؛ وعن حجم

أكبر ماسة فى العالم. ثم حانت منى التفاتة إلى الثوب الذى راق ماشا، وتخيلتها فى حفلة راقصة تحمل مروحة . وكتفاها عاريتان. وقوامها رائع باهر. غارقة فى الموسيقى والرسم والأدب. كم بدا نصيبى فى حياتها ضئيلا تافها. كان لقاؤنا وزواجنا فترة منها كثير في حياة هذا الكائن الموهوب الممتلىء حيوية. كان خير ما فى العالم طوع يمينها. لا تتكلف له شيئا حتى الحركات الفكرية الشائعة كانت إحدى مسراتها، تسرى عنها فى حياتها. لم أكن أنا الا الحوذى الذى يمضى بها من حماقة إلى أخرى. وقد انتفت اليوم حاجتها الى. فستذهب عنى وتتركنى وحيداً وهنا عادت من الفناء فجأة صيحة يائسة كأنها جواب أفكارى.

– النجدة! النجدة!

وكانت الصيحة لامرأة. والصوت حادا. وقد أعولت الريح فى المدخنة عويلا كئيبا كأنها تقلد الصيحة تقليدا. ومضى نصف دقيقة ثم عادت الصرخة مرة أخرى على صوت الريح.

– النجدة! النجدة!

قالت زوجتى هامسة:

– أسمعت ذلك يا ميشيل؟ أسمعت؟

وخرجت من مخدعها فى منامتها مرسلة الشعر، ووقفت تنصت وتحدق من خلال النافذة المظلمة. تمتمت:

– هناك شخص يقتل. لم يكن ينقصنا غير هذا.

أخذت بذ قيتي و خرجت . كان الفناء حالك الظلمة ، وقد اشتدّ هبوب الريح حتى ليتعذر الوقوف . ذهبت إلى البوابة وأنصت . كانت الأشجار تئن . والريح تصفر خلالها . وكلب الأبله ينبح في الحديقة . أما وراء البوابة فكان الظلام كالقار . ولم يكن على الخط الحديدي ضوء ما. ولكني سمعت فجأة قريبا من الجناح الذى كانت فيه المكاتب صيحة مخنوقة .

— النجدة ! النجدة ! .

ناديت :

— من هناك ؟

وإذا هما رجلان قد اشتبكا في صراع . وكاد أحدهما يطوح بالآخر . لولا أنه يقاومه بكل قوته . وقد ثقلت أنفاسهما جميعا . قال أحدهما :

— دعني .

فعرفت فيه ايفان شبرا نوف . كان هو الذى صاح بصوت نحيل.

— دعني . يا خنزير وإلا عضضت يديك .

وعرفت في الرجل الثانى موسى . ففصلت بينهما ، ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألكم موسى في وجهه مرتين . فسقط ثم وقف فلكمته مرة أخرى . تمتم :

— لقد حاول أن يقتلني . ضبطته يتسحب إلى درج أمه. وحاولت أن أحبسه هنا لنأمن شره .

وكان شبراكوف سكران فلم يعرفني . وقد وقف يلقف أنفاسه ، كأنما يريد أن ينشق من الهواء ما يمكنه من الصياح مرة أخرى . ثم تركتهما وعدت إلى المنزل ؛ فوجدت زوجتي مستلقية على فراشها ؛ وقد ارتدت ملابسها كاملة . فأخبرتها بما حدث في الفناء ، ولم أخفِ عنها أني ضربت مويسي . قالت :

— إن سكنى الريف فظيعة . كم يطول فيه الليل !

وبعد قليل سمعنا من جديد .

— النجدة ! النجدة ! . قالت :

— سأذهب وافرق بينهما .

فقالت في اشمئزاز .

— لا دعهما . يقتل احدهما الآخر .

رفدت تحدق في السقف ، وتنصت ؛ وجلست قريبا منها ؛ وانا لا اجرؤ على الكلام . بل كنت احس ان انبعاث صيحات النجدة ؛ من الفناء ؛ وطول الليل ؛ كانا من ذنبي . لبثنا صامتين . وأنا أنتظر ، نافد الصبر ، أن يبزغ ضوء الفجر من وراء النافذة . وكانت ماشا تبدو وكأنها قد صحت من نوم طويل . فعجبت أن ترى نفسها وهي الذكية المتعلمة الرقيقة تذوى في هذا الجحر الريفي التعس بين قوم من الناس فيهم صغار وضحولة وأن يبلغ بها نسيانها لنفسها أن تحب واحدا منهم . فتصبح زوجة لأكثر من ستة أشهر . وبدا لي أننا جميعاً سواء عندها . أنا ومويسي

وشبراكوف – أنا وزواجى وعملنا وطرق الخريف الموحلة – تجرفنا جميعا صيحة « النجدة » المخمورة الوحشية . وكنت أستطيع أن أقرأ فى عينيها وهى تتنهد وتعدّل من جلستها أن: أوه. ليت النهار يعجل بقدومه.

وفى الصباح رحلت . وبقيت فى دوبشينا ثلاثه أيام أخرى أنتظرها ثم نقلت أشياءنا جميعا إلى غرفة واحدة وأغلقتها ، وذهبت الى المدينة .

وحين قرعت الجرس فى بيت المهندس كان الوقت مساء ، والمصابيح مضاءة فى شارع الأعيان الكبير . أخبرنى ياقل أن لا أحد بالمنزل ، وأن فيكتور ايفانتش قد ذهب إلى بطرسبرج ؛ وأن ماريا فيكتوروفنا قد تكون فى تجربة ببيت أشوجن . وأنا أذكر اضطرابي حين ذهبت إلى بيت أشوجن ، وكيف ثقلت دقّات قلبي وغاص فى حشاى . وأنا أصعد الدرج ؛ وكيف وقفت طويلا على العتبة لا أجرؤ على ولوج هيكل الربات ذاك ! كانت الشموع موقدة فى القاعة ، وفوق النضد، وعلى المسرح كل ثلاث معاً . جُعِلَ موعد الحفلة الأولى اليوم الثالث عشر . والتجربة بالملابس يوم الاثنين – يوم النحس – صراع ضد الخرافة ! وقد اجتمع محبو الفن المسرحى جميعا ؛ وأخذت فتيات أشوجن الكبرى والوسطى والصغرى يذرعن المسرح وهن يقرأن أدوارهن . وقد وقف راديش وحده فى ركن . ورأسه يعتمد الى الحائط وهو ينظر الى المسرح نظرة العابد ، وينتظر أن تبدأ التجربة . كان كل شيء على وضعه القديم لم يتغير .

وما إن اتجهت نحو ربة الدار أحييهـا حتى بدأ كل من حولي يهمسون لي. ويرفعون أيديهم أن أكف عما أحدث من ضجة وأنا أمشي. وران السكون. ورفع غطاء البيان. وجلست سيدة تحزر صفحة الموسيقى بعينين قصيرتي النظر. ووقفت ماشا الى جانب البيان. وقد ارتدت ثوبا جميلا. ولكن جماله كان من طراز جديد غريب، لا يحكي قط ماشا التي كانت تأتي إلي في الطاحونة أيام الربيع. وبدأت تغني: « لم أحبك أيها الليل الهادىء ؟ »

كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعتها فيها تغني منذ عرفتها. وكان لها صوت لطيف، غني. قوي. وكنت أصغي إلى غنائها وكأني آكل فاكهة ناضجة ذكية الرائحة. ثم ختمت الأغنية وصفق الحاضرون، فابتسمت وبدا عليها السرور. وأجالت عينيها ورنت إلى صفحة الموسيقى. وعدلت من ثوبها كما يخلو طائر إلى جناحيه يسوي ريشهما بمنقاره إثر هروبه من القفص. وكان شعرها مسرحاً الى الوراء، على أذنيها، وعلى وجهها تعبير من التحدي الماكر، كأنها تريد أن تتحدانا جميعاً. أو أن تصيح بنا وكأننا خيول أن « هيا أيتها الخيول العجاف ».

كانت في تلك اللحظة أشبه شيء بجدها الحوذي. قالت وهي تمد لي يدها:

— أنت هنا أيضاً! أسمعتني أغني؟ كيف ترى غنائي؟

ثم قالت دون أن تنتظر جوابي.

– لقد جئت فى وقتك . فأنا ذاهبة الليـــلة إلى بطرسبرج لفترة قصيرة. أتسمح؟

وفى منتصف الليل ذهبت بها إلى المحطة . وقد عانقتنى فى حنان ، ولعلها بذلك كانت تشكر لى أنى لم أثقل عليها بأسئلة لا تجدى ، ووعدت أن تكتب إلى . وأبقيت يديها فى يدى وقتاً طويلا ثم قبلتهما وأنا أجهد فى حبس دمعى . ولا أفوه بكلمة .

وحين تحرك القطار وقفت أنظر إلى أضوائه المتباعدة ، وأنا أقبلها فى خيالى وأهمس:

– يا عزيزتى ماشا . يا فاتنتى ماشا .

وقضيت الليلة فى مكاريخا عند كاربوفنا . وفى الصباح عملت مع راديش فى تنجيد أثاث تاجر غنى كان قد زوج ابنته إلى طبيب .

– ١٧ –

فى مساء يوم الأحد جاءت أختى تزورنى ، وتناولت الشاى معى . قالت وهى ترينى الكتب التى استعارتها من مكتبة المدينة فى طريقها إلى :

– أنا أقرأ الآن كثيراً . والفضل فى ذلك لزوجتك وڤلاديمير ، فقد أيقظا شعورى بنفسى . وأنقذانى ، وأشعر انى بأنى كائن بشرى . كنت أسهر الليل قلقة أفكر . كم أسرفنا فى السكر هذا الأسبوع ! « كم أرجو ألا يكون ملح الخيار زائداً ! » وأنا اليوم لا أنام ولكن

أفكارى مختلفة تماما . يعذبنى اليوم انى قضيت نصف عمرى فى حياة من الغفلة والجبن . إني احتقر حياتى الماضية ، واخجل منها ، وانظر إلى أبى الآن كانه عدوى . أوه . كم أنا شاكرة لزوجتك ! ولفلاديمير ! ذلك الرجل الرائع . فهما قد فتحا عينى على أشياء كثيرة . قلت :

– يسوءنى ألا تنامى .

– أتظننى مريضة ؟ البتة . وقد فحصنى فلاديمير وقال إنى موفورة الصحة . ولكن ليس الأمر تمام الصحة ، فهذا لا يهم . قل لى هل أنا على حق ؟

كان واضحاً انها بحاجة إلى سند نفسى ؛ فقد ذهبت ماشا ، وكان الطبيب بلاجوفو فى بطرسبرج ، ولم يعد في المدينة أحد سواى يستطيع أن يقول لها إنها على حق . اثبتت عينيها فىّ . تحاول ان تقرأ أفكارى الدفينة . وكنت إذا شرد ذهنى فى هذه الأفكار رغم وجودها وبقيت صامتا وحزنت ، كان على ان الزم الحيطة ، فاذا سألت أهى محقة سارعت فأكدت لها أنها كذلك ، وأنى أنطوى لها على احترام كبير . عادت تقول :

– اتعلم انهم اعطونى دوراً فى بيت اشوجين . فأنا أريد أن أمثل ، أريد أن أحيا ، وان انغمس فى الحياة . انا عارية عن كل موهبة ودورى لا يعدو عشرة اسطر ولكن ذلك ألطف بكثير وانبل من صب الشاى خمس مرات فى اليوم ؛ ومراقبة الطاهية حتى لا تأكل ما يتبقى من السكر

وأهم من ذلك كله انى أريد أن يرى أبى انى أيضاً أستطيع ان اثور على طغيانه .

بعد الشاى رقدت على فراشي زمنا ، وعيناها مغلقتان ، ووجهاشديد الشحوب . قالت وهى تنهض :

— ذلك ضعف لا أكثر . وقد قال فلاديمير إن فتيات المدينة ونساءها جميعا يشكون فقر الدم لأنهن لا يعملن . يالفلاديمير من رجل ماهر ! إن الحق فى جانبه دائما ؛ فنحن فى حاجة الى العمل حقا .

وبعـد يومين جاءت للتجربة فى بيت أشوجين وفى يدها دورها . كانت ترتدى ثوبا أسود وعليها قلادة من عقيق ؛ ودبوس يبدو من بعيد كأنه فطيرة ؛ وقرطان كبيران تتلألأ فى كل منهما جوهرة ، اضطربت حين رأيتها ؛ وراعنى فساد ذوقها . وقد لاحظ الآخرون أيضا أن ملابسها لم تكن مناسبة ، وأن أقراطها وجواهرها كانت نابية . رأيت ابتساماتهم وسمعت بعضهم يقول ساخراً .

— كلوباترا ملـكة مصر !

لقد حاولت أن تـكون سيدة مجتمع ؛ وأن تبدو متبسطة مالـكة لنفسها . فبدأ عليها التكلف والشذوذ . وفقدت بساطتها وسحرها . أخذت تقول وهى قادمة إلى :

— لقد أخبرت أبى أنى ذاهبة إلى تجربة . فصاح وكاد ينزل بى امنته . وأوشك ان يضربنى . واضطرت وهى تلقى على دورها نظرة :

تصور . أنا لا أعرف دورى . وسأخطىء دون شك . ثم قالت مضطربة لا بأس ، فقد قضى الأمر . قضى الأمر .

كانت تشعر أن الجميع ينظرون إليها ، وأنهم يعجبون للخطوة الهامة التى أقدمت عليها ، وأنهم يتوقعون أن يصدر عنها شىء رائع . كان من المحال إقناعها بأن أحداً لا يعير التفاتة إلى أمثالى وأمثالها من صغار الناس.

لم يكن لها عمل ما إلى الفصل الثالث . وكان دورها، وهو عن ضيفة تسترق السمع ريفية ثرثارة ؛ لا يعدو أن تقف إلى جوار الباب كأنها تتسمع حديثاً ما ، ثم تخاطب نفسها خطابا قصيراً . لزمتني ساعة ونصف ساعة على الأقل قبل أن يبدأ دورها ، فلم تغادرنى فى حين كان الآخرون يتمشون ويقرءون ويتناقشون ويشربون الشاى ، بل لبثت الوقت كله تتمتم بدورها ، وتقبض الورقة فى يدها . وتخال أنهم ينظرون اليها وينتظرون ظهورها على المسرح . ربتت على شعرها بيد مرتعشة وقالت :

— سأخطىء دون شك . انت لا تعرف كم انا مضطربة . انا فزعة كما لو كنت اساق إلى المقصلة .

وأخيرا جاء دورها فقال المخرج :

— كلوباترا اليكسيڤنا . دورك

فمشت إلى وسط المسرح وعلى وجهها تعبير من الفزع ، وكانت تبدو قبيحة جامدة . وقفت هناك نصف دقيقة وهى لا تنبس . ولا تبدو [illegible] السكينين على صفحتى وجهها . قال قائما [illegible]

— تستطيعين فى هذه المرة أن تقرأى دورك .

كان واضحاً أنهـا ترتعد ، ولا تستطيع أن تقرأ أو تفتح كتابها لصغير ، وأنهـا قد نسيت الكلمات نسياناً تاماً . وما إن عزمت على أن ذهب إليها وأكلمها حتى وقعت على ركبتيها فى وسـط المسرح وهى ننتحب .

عم المكان اضطراب وصياح . ووقفت جامداً فى مكانى وراء المسرح وقد صعقني ما حدث . لا أفهم شـيئاً ، ولا أدرى ما أفعل . وقد رأيتهم يحملونها ويقودونها بعيداً . ورأيت أنيوتا بلاجوفو تأتى إلى، ولم أكن قد رأيتها في القاعة ، بل خيـل إلى انها انبعثت من الأرض . كانت ترتدى قبعة ونصيفا . وبدت كعادتها وكأنها مرت بالمكان اتقضى فيه لحظة وتمضى .قالت غاضبة وهى تلفظ الكلمات واحدة واحدة وقد احمر خداها:

— لقد قلت لها إنه لا ينبغى ان تمثل . هذا جنون . كان عليك ان تمنعها .

وجاءت السيدة أشوجين إلى مسرعة فى سترة قصيرة ذات أكمام قصار ؛ وكان على صدرها النحيـل الأمسح آثار من رماد الطباق . قالت وهى تضرب يداً بيد . وتحدق كعادتها فى وجهى !

— هذا فظيع . . إن أختك فى حالة . . إنها حامل . إذهب بها حالا . . أرجوك

كان [illegible] وكانت تقف ووراءها بناتها الثلاث

وكلهن نحيفات سمراوات ، مثلها وقد بدا عليهن الرعب ، وتلاصقن ، كن فزعات قلقات كأنما قبض في بيتهن على مجرم : أي عار ! فظاعة ! هذه هى الأسرة التى قضت حياتها تحارب الأوهام البشرية والخرافات . يظهر أن خرافات البشر وأخطاءهم جميعاً كانت تنحصر عندهن فى إشعال ثلاث شموع معاً ، أو فى الثلاثة عشر ، أوفي اليوم المنحوس — يوم الاثنين .

أخذت السيدة اشوجين تقول :

— أرجوك . . أرجوك . ثم قالت وهي تضغط على شفتيها لتؤكد الرجاء :

— يجب ان ارجوك فى ان تذهب بها إلى البيت .

— ١٨ —

بعد قليل كنت أمشى أنا وأختى فى الطريق . وقد غطيتها بمعطفى . كنا نسرع فى الشوارع الجانبية الخالية من المصابيح . و نتجنب المارة . كنا أشبه بهاربين . لم تعد تبكى ، بل كانت تحدق فىّ بعينين جفت فيهما الدموع . وكنا نبعد قدر عشرين دقيقة عن ماكاريخا إلى حيث كنت ذاهباً بها . وفى تلك الفترة القصيرة . رجعنا إلى الوراء فمررنا بحياتنا كلها ، وكنا نتحدث عن كل شيء ، ونتأمل موقفنا ونفكر . .

رأينا أنا لا نستطيع أن نقيم فى المدينة . بل ينبغى أن نذهب إلى مكان آخر حيث أحصل على شيء من المال . كان الناس فى بعض المنازل قد ناموا . وكانوا فى بعضها الآخر يلعبون الورق . وكنا نبغض تلك المنازل

ونخافها ، وتتحدث عن هوس تلك الأسر المحترمة ، وفراغها ، وموت إحساسها ، وعن عشاق الفن المسرحي أولئك الذين ملأ نامم بالفزع .

كنت أعجب كيف يمكن أن يكون هؤلاء الأغبياء القساة والبلداء الأنذال خيراً من فلاحي كوريلوفكا السكيرين الذين يعتقدون بالخرافات ، أو كيف يمكن أن يكونوا خيراً من الحيوانات التي تفقد وعيها حين تطرأ حادثة ما على حياتها الرتيبة التي تحددها الغرائز . ماذا يمكن أن يقع لأختي لو أنها بقيت في المنزل ؟ أي عذاب نفسي يكتب عليها أن تتحمله وهي تحادث أبي أو تلقى معارفنا كل يوم ؟ تصورت ذلك كله ، فأخذت تتوارد على ذهني صور أناس كنت أعرفهم معرفة وثيقة ، تخلى عنهم أصدقاؤهم وأقرباؤهم شيئاً فشيئاً . وذكرت الكلاب المشردة التي أصابها الجنون . والزرازير ينتف ريشها الصبيان القساة وهي حية ثم يلقونها في الماء - إلى صور من التعذيب البطيء الوحشي لا تنتهي . اعتدت أن أشهدها في المدينة منذ الطفولة . ولم أستطع أن أفهم الغاية من حياة خمسة وثلاثين الفا من السكان . لم كانوا يقرءون الإنجيل . لم كانوا يعملون ؟ لم كانوا يمرون بأعينهم على الكتب والمجلات ؟ ما قيمة كل ما كتب وقرئ إذا بقي الناس في مثل ما كانوا فيه من الظلام الروحي . ومن بغض الحرية . وكأنهم يعيشون منذ مئات ومئات السنين ؟ إن البناء منهم ليقضي عمره بين المنازل ثم يمضي إلى قبره وهو لا يزال يقول «الشفرة» بدل «الشرفة» . وقد قرأ الخمسة والثلاثون ألفاً من السكان وسمعوا عن الحقيقة والرحمة والحرية

أجيالا ، ولكنهم لا يزالون حتى آخرتهم المرة يكذبون من الصباح إلى المساء ، ويعذب الواحد منهم الآخر ، ويخشون الحرية ويكرهونها كأنها أعدى أعدائهم. قالت أختى حين أدركنا البيت :

– وكذلك قضى فى أمرى فأنا لا استطيع ان اعود إلى هناك بعد الذى حدث . يا إلهى كم يطيب لى ذلك لقد ازيح عن كاهلى عبء ثقيل .

ورقدت لنوها ، ولمعت الدموع فى أهدابها ، وإن بدت سعيدة . ونامت نوما عميقاً رخيا . كان جليا أنها تحس بالأمن والراحة وأنها لم تنم مثل هذا النوم منذ وقت طويل

وكذلك بدأنا نعيش معاً . كانت تغنى دائمًا وتقول إنها بخير حال . وقد أعدت الكتب التى استعرناها من المكتبة دون أن تقرأ لأنها قالت إنها انصرفت عن القراءة . لم تكن تريد إلا أن تحلم وتتحدث عن المستقبل . كانت تدندن وهى ترفع ملابسى ، أو تساعد كاربوفنا فى الطهى أو تتحدث عن فلاديمير . عن عقله وطيبته ، ومسلكه اللطيف ، وعلمه الممتاز . وكنت أوافقها وإن لم أعد أحب الطبيب. كانت تريد أن تعمل ، وأن تغدو مستقلة . وأن تعيش بمفردها. وقالت إنها تود أن تصبح معلمة أو ممرضة حين تسمح صحتها بذلك . وإنها تريد أن تمسح الأرض بنفسها وأن تغسل ملابسها بيدها . وكانت تحب جنينها حبا جما . بل إنها لتعلم لون عينيه ، وشكل يديه . وطريقته فى الضحك ، وكانت تحب أن تتحدث [illegible] على الأرض . وإن آراءها جميع

كانت تنحصر فى أن تجعل الطفل ساحراً مثل أبيه . لم تكن لثرثرتها نهاية ، وكان كل ما تتحدث عنه يملؤها مرحا . وكنت أنا أحيانا أفرح وإن لم أكن أعلم لذلك سبباً .

ولست أشك فى أنها قد أعدتنى بأحلامها ، فقد غدوت أنا أيضا لا أقرأ شيئًا ، بل أقتصر على الأحلام . وقد اعتدت كل مساء على ما بى من تعب ، أن أذرع الغرفة روحة وجيئة ويداى فى جيوبى . وأنا أتحدث عن ماشا . كنت أسأل عن أختى :

— متى تظنينها تعود ؟ أظنها عائدة مع عيد الميلاد ، على الأكثر . فأى عمل لها يبقيها هناك ؟

— ما دامت لا تكتب إليك . فذلك يعنى أنها قريبة العودة .

— حقاً .

كنت أوافقها ، وإن أيقنت أنه لم يكن في مدينتنا ما يدعو ماشا إلى العودة .

كنت شديد الافتقاد لماشا . ولكن لم يكن يسعنى إلا أن أخدع نفسى . وأرغب في أن يخدعنى غيرى . كانت أختى مشوقة إلى طبيبها ، وكنت أحن إلى ماشا . ولكننا كلينا كنا نضحك ونتحدث ولا نرى قط أننا نحرم كاربوفنا من النوم . فكانت ترقد على الفرن تغمغم

— إن السماور كان ينش هذا الصباح . ناش — ش .. ولا يحمل ذلك خيرا لأحد .. يا رفع الناس !

لم يكن يأتى إلى البيت أحد غير ساعى البريد، الذى كان يجلب لأختى خطابات من الطبيب، وغير پروكوفى الذى اعتاد أن يأتى فى المساء أحيانا ويسارق أختى النظر ثم يذهب إلى المطبخ ويقول :

— لكل طبقة طرقها الخاصة ، وإذا تكبرت عن فهم ذلك فلن تلقى خيراً فى وادى الدموع هذا .

كان يحب عبارة « وادى الدموع » . وقريباً من عيد الميلاد كنت أجتاز السوق فدعانى إلى دكانه . وقال دون أن يمد لى يده بالسلام ، إن لديه أمراً هاماً يريد مباحثتى فيه . وكان محمر الوجه من أثر الفودكا والصقيع ، وإلى جواره وقف نيكولكا الذى تبدو على وجهه سيماء القتلة ، وهو يحمل فى يده سكيناً دامية . بدأ پروكوفى يقول :

— أريد أن أصارحك القول . فهذه الحالة كما تعلم لا يمكن أن تستمر . ففى وادى الدموع هذا لن يظفر أحد منا أو منكما بثناء . وقد حالت الرحمة بين أمى وبين أن تحدثك بما لا يسرك . وتطلب اليك أن تبحث لك ولأختك عن منزل آخر . للحالة التى عليها أختك ولكنى لا أريد بقاءكما . لأنى لا أقر تصرفها .

فهمت ما يريد ، وغادرت الدكان . وفى ذلك المساء انتقلت أنا وأختى الى بيت راديش . ولم يكن معنا أجر العربة فمشينا . وكنت احمل صرة أشيائنا على ظهرى . وكانت أختى لا تحمل شيئا ، بل تسير وهى تلتهب وتسعل وتسألنى هل يطول بنا السير ؟

فى النهاية جاء خطاب من ماشا . كتبت :

يا عزيزى الحبيب م . ا . يا فتاى الشجاع ، يا ملاكى الرفيق كما يدعوك النقاش الهرم — الوداع . انا ذاهبة إلى امريكا مع ابى نشهد المعرض . وبعد ايام قليلة سأركب المحيط — بعيداً جداً عن دوبشنيا . كم يهولنى ان افكر فى هذا ! فالمحيط واسع طلق كالسماء . وانا احن اليه لأنه يمنحنى الطريق الى الحرية . انا امرح وارقص وانت ترى ما فى خطابي من اضطراب . يا عزيزى ميشيل امنحنى حريتى . واسرع بقطع الخيط الذى لا يزال يربط بيننا . لقد كان لقائى لك ومعرفتى بك شعاعاً من السماء اضاء وجودى . ولكنك تعلم انى اخطأت حين اصبحت زوجة لك . ومعرفتى بالخطأ تثقلنى ؛ فأنا أتوسل اليك راكعة . يا عزيزى ، يا صديقى الكريم ، ان تسرع . ان تسرع قبل ان اركب البحر فتبرق الى انك تقرنى على اصلاح ما وقعنا فيه من خطأ . وترفع عن جناحى ذلك العبء الوحيد . وسيتولى أبى الأمر كله ؛ وقد وعدنى انه لن يثقلك بالامور الرسمية . هل انا حرة إذن اذهب فى الدنيا حيث اشاء ؟ اجل ؟ لتسعد وليرعك الله ، أغفر لى اساءتى .

انا بخير ، انفق المال دون حساب فى صنوف الحماقات جميعاً ، واحمد الله ابدا على ان امراة طائشة مثلى لم تنجب اطفالا . انا اغنى ؛ وانال نجاحاً فى الغناء ولكن ذلك لا يشبع عاطفتى . فالغناء هو ملاذى وقد

لجأت اليه اليوم لأستريح . لقد كان للملك داود خاتم نقش عليـه « كل شيء يمضي » وهـذه الـكلمات تدخل السرور على قلب الحزين ؛ وتدخل الحزن على قلب المسرور . وعندى الآن خاتم عليه هذه الـكلمات بالعبرية؛ وستحفظ هذه التعويذة على قلبي وعقلي . او لعل الانسان لا يحتاج إلا إلى الشعور بالحرية . لأن الانسان الحر لا يحتاج إلى شيء ما . إلى أى شيء . اقطع الخيط إذن . اعانقك واعانق اختك فى حرارة . اغفر لى . وانس . حبيبتك م . »

كانت لأختي غرفة خاصة بها ، وكان راديش الذى نقه بعد مرضه يقيم في الغرفة الأخرى وكانت أختي حين تلقيت هـــذا الخطاب قد ذهبت الى غرفة النقاش وجلست الى صيوان تقرأ له . وكانت تقرأ له اوستروفسكى أو جوجول كل يوم . وقد اعتاد ان يصغى وهو يحدق بعينيه أمامه : لا يضحك قط . بل يهز رأسه . ويهمس بين حين وآخر لنفسه ، كل شيء قد يحدث . كل شيء قد يحدث .

وإذا مر فيما تقرأ شيء قبيح قال محتداً وهو يشير إلى الـكتاب :

— هذا هو . أ كاذيب . هذا ما تفعله الأكاذيب .

وكانت القصص تشوقه بحوادثها كما كانت تشوقه بفكرتها الخلقية وعقدتهـا المحبوكة . وقد اعتاد أن يظهر إعجابه بضمير الغائب دون ان يصرح باسم ما . فيقول .

— يا لمهارته فى تنسيق ذلك كله .

كانت أختى قد قرأت صفحة من الكتاب مسرعة ثم صمتت وقد خانها صوتها. فأمسك راديش بيدها وقال وقد تحركت شفاهه الجافة فى صوت اجش لا يكاد يسمع.

– إن روح الطاهر بيضاء ناعمة كالطباشير. أما روح الخاطىء فهي من حجر الخفان. إن روح الطاهر زيت صاف أما روح الخاطىء فقطران. ثم قال: يجب أن نعمل و نحزن و نرحم، وإذا عاش إنسان دون أن يعمل أو يحزن لم يدخل مملكة السماء. الويل الويل للمتخمين. الويل للأقوياء الويل للأغنياء الويل للمرابين. إنهم لن يروا مملكة السماء. إن الصراصير تأكل الحشيش. والصدأ يأكل الحديد..

فأتمت أختى ضاحكة:

– والأكاذيب تنخر الروح

قرأت الخطاب مرة أخرى. وفى تلك اللحظة جاء الجندى الذى كان يأتي الينا مرتين فى الأسبوع دون أن يخبرنا عمن يرسله. ويجلب الشاى والخبز الفرنسي ولحم الطيور تفوح منها رائحة طيبة. ولم أكن أعمل. فكنت أقضى الأيام جالساً فى البيت. وربما علم من كان يرسل الينا الخبز أننا كنا فى حاجة.

سمعت أختى تحادث الجندى وتضحك فى مرح. ثم رقدت وأكلت شيئاً من الخبز وقالت لى:

– حين أردت أن تترك المكتب، وتصبح نقاشاً. كنت أنا

وأنيوتا بلاجوفو نعلم منـــذ البدايه أنك على حق ، ولـكنا خشينا أن نقول ذلك . قل لى ، أى قوة تلك التى تمنعنا عن التصريح بما نحس به ؟ هذه أنيوتا بلاجوفو فهى تحبك، تعبدك، وتعلم أنك على حق . وهى تحبنى أيضاً كالشقيقة ، وتعلم أنى على حق. وهى فى نفسها تحسدنى ، ولـكن قوة ما تمنعها من أن تأتى لزيارتنا . إنها تتجنبنا إنها تخاف .

وعقدت أختى يديها على صدرها وقالت وقد استخفها الفرح :

– ليتك تعلم قدر حبها لك ! لقد اعترفت لى بذلك ، ولم تصرح به لغيرى . حدثتنى به في تردد وفى الظلام . كانت تأخذنى إلى الحديقة ، فى الظلام ، وتحدثنى هامسة بمكانك من قلبها . وسترى أنها لن تتزوج أبداً لأنها تحبك . أأنت آسف لها ؟

– أجل .

– إنهـا هى التى أرسلت الينا الخبز . وهى غريبة حقاً ، فلم تخفى نفسها ؟ لقد كنت أنا أيضاً غريبة مضحكة ولـكنى شعرت بذلك كله، فلم أعد أخشى أحداً ، وأصبحت أفكر كما اشاء واعلن ما اشاء،وانا بذلك سعيدة . حين كنت اقيم فى منزلنا لم ا كن ادرك معنى السعادة اما الآن فأنا ارفض ان اتبادل مكانى مع ملكة .

أتى الطبيب بلاجوفو ، وقد حصل الآن على إجازته واصبح يعيش فى المدينـة فى بيت ابيه يطلب الراحة . وقد قال إنه سيعود بعدها إلى بطرسبرج لأنه يريد ان يكرس نفسه للتطعيم ضد التيفوس،والـكوليرا

فيما اظن . كان يريد ان يذهب إلى الخارج يستزيد من المعرفة ثم يغدو من بعد استاذا فى الجامعة . وقد ترك الجيش وأخذ يلبس الآن سترة صوفية ضافية ، وسراويل فضفاضة ، وأربطة عنق جميلة . وكانت أختى مدلهة بدبابيس أربطته . وأزرار قيصه . ومنديله الحريرى الأحمر الذى كان يضعه معجباً بنفسه فى جيب الصدر من سترته . وحدث مرة حين لم يكن عندنا مايشغلنا أن أخذنا أنا وأختى نعد ما عنده من حالل فانتهينا إلى أنها لا تقل عن عشر ، وكان من الجلى انه لا يزال يحب اختى ، ولكن لم يحدث مرة ولو على سبيل الهزل انه تحدث باصطحابها إلى بطرسبرج او إلى الخارج . ولم أكن استطيع ان اقدر ما قد يحدث لها إذا سلمت بعد محنة الوضع ، وما يمكن ان يقدر لوليدها ، ولكنها كانت سعيدة بأحلامها لا تميل إلى التفكير الجدى فى المستقبل . كانت تقول إن بلاجوفو يستطيع أن يذهب حيث يشاء . بل يستطيع ان ينبذها إذا كان فى ذلك ما يسعده ، اما هى فيكفيها مانالت من سعادة .

كان من عادته حين يزورنا أن يفحصها فحصاً جيداً . ويطلب اليها أن تشرب أمامه شيئاً من اللبن قطرت فيه بضع قطرات من الدواء . وقد فعل ذلك في هذه المرة أيضاً ففحصها وجعلها تشرب كوبا من اللبن . فشاعت فى الغرفة رائحة الكريوزوت . قال وهو يأخذ منها الكوب:

— أنت فتاة طيبة . يجب ألا تتكلمى كثيراً ، فقد قضيت الأيام الأخيرة لا تكفين عن الثرثرة كالعقعق . أرجو أن تهدئى .

بدأت تضحك . ثم دخل غرفة رادلش حيث كنت أجلس، وربت على كتفي في حنان وسأل وهو ينحني على المايل .

- حسناً أيها الشيخ . كيف أنت ؟

فقال رادلش وهو يحرك شفتيه بهدوء

- سيدى . دعني أقل . . . اننا جميعا تحت رحمة الله . . . لا بد أن يدركنا الموت . . . دعني أحدثك بالحقيقة يا سيدى . . . انك لن تدخل أبداً مملكة السماء .

وهنا فقدت شعورى بنفسي، واستولى على الحلم . كان الفصل شتاء، والوقت ليلا . وكنت واقفا في فناء المسلخ مرتكوفى إلى جانبي تفوح منه رائحة الكونياك . ثم تمالكت نفسي وفركت عيني . ثم مرت بخاطرى صورة زيارتي للمحافظ .

لم يحدث لى ما يشبه ذلك من قبل . وقد ارجعت هـذه الأحلام الغريبة التي تشبه الذكريات الى الإرهاق العصبي . عشت مرة أخرى في زيارتي المسلخ والمحافظ ، وكنت ادرك في الوقت عينه ان هذه الأشياء لم تكن حقيقة واقعة .

حين أفقت من غشيتي . أدركت أني لم اعد في البيت ، بل كنت واقفا في الشارع مع الطبيب الى جانب أحد المصابيح .

كان يقول والدموع تجرى على خديه :

ـــ هـذا محزن . محزن . انها سعيدة دائمة الضحك مليئة بالأمل ،

ولكن حالتها تدعو الى اليأس . إن الشيخ راديش يكرهنى ولا يزال يحاول أن يفهمنى أنى أسأت اليها . وهو محق من جانبه . ولكن لى وجهة نظرى أيضا ، وأنا غير نادم على شىء مما حدث . فالحب شىء ضرورى ونحن جميعا يجب أن نحب هذا حق . ألا ترى ذلك ؟ لا حياة بغير الحب ، وليس حرا ذلك الرجل الذى يتجنب الحب ويخشاه .

ثم انتقلنا إلى موضوعات أخرى . فبدأ يتحدث عن العلم . وعن رسالته التى قوبلت فى بطرسبرج مقابلة حسنة . كان يتكلم فى حرارة ولم يعد يفكر فى أختى أو فى حزنه أو فىّ . كانت الحياة تمضى به بعيداً . قلت لنفسى : تلك ماشا لديها أمريكا ومعها خاتم عليه نقش ، وهذا له درجته الطبية وحياته العلمية أما أنا وأختى فقد تُرِكنا مع الماضى .

ولما افترقنا وقفت تحت المصباح أقرأ خطابى مرة أخرى . ذكرت جيداً كيف جاءت إلى فى الطاحونة فى ذلك الصباح الربيعى ثم رقدت وغطت نفسها بسترة الفراء تخيل لى أنها امرأة فلاحة . وذكرت كيف سحبنا فى مرة أخرى وفى الصباح الباكر كذلك . الشبكة من الماء ، وكيف كانت أشجار الصفصاف على الشاطىء تنفض علينا قطرات كبيرة من الماء فنضحك .

كان كل شىء مظلما فى دارنا بشارع الأعيان الكبير . فتسلقت السور ، كما اعتدت أن أفعل فى سالف الأيام ، ودخلت المطبخ من الباب الخلفى لآخذ مصباحا صغيراً . لم يكن فى المطبخ أحد . وكان السماور يهزج

على الموقد، معداً لأبي. قلت لنفسي : ترى من يصب الشاى لأبي الآن؟ أخذت المصباح وذهبت إلى البنية وصنعت من الجرائد القديمة فراشاً ورقدت. وكانت المسامير الكبيرة في الحائط تبدو مخيفة كعادتها وقد تراقصت ظلالها. وكان المكان باردا. ظننتني أرى أختي مقبلة بالعشاء، ولكني ذكرت لتوى أنها مريضة فى بيت راديش، وبدا لى غريبا أنى تسلقت الجدار ورقدت فى البنية الباردة. كان عقلى فى ضباب تملؤه خيالات غريبة.

دق جرس بأصوات ألفتها منذ الطفولة، صوت السلك يتحكك أول الأمر بالحائط، ثم رنة قصيرة حزينة تسمع في المطبخ. كان ذلك أبي وقد عاد من النادى. قمت وذهبت إلى المطبخ، فصفقت أكسينيا الطاهية بيديها حين رأتني وبدأت تبكي. قالت هامسة :

— أوه يا عزيزى! أوه يا عزيزى! يا إلهى!

وبدأت فى اضطرابها تقبض أصابعها على المئزر. وكانت على إفريز الشباك زجاجة من الفودكا. فملأت كوبا وجرعته وكنت شديد الظمأ. وكانت أكسينيا قد انتهت من مسح المائدة والكراسى وكان المطبخ الريح الطيبة التى تكون للمطابخ دائما إذا كان الطاهى نظيفاً مرتباً. وكانت هذه الرائحة وصوت صرار الليل فى الحائط كثيرا ما تجذبنا إلى المطبخ ونحن أطفال، فنستمع إلى القصص ونلعب ممثلين الملوك ..

أسرعت أكسينيا بالسؤال لاهثة :

— وأين كليوباترا ؟ وأين قبعتك ياسيدى ؟ إنهم يقولون إن زوجتك قد ذهبت إلى بطرسبرج .

كانت أ كسينيا تقيم عندنا فى حياة أمى، وكانت تحمّمنى أنا وكليوپاترا فى طست ، وكنا لا نزال عنـدها أطفالا ومن واجبها أن تقومنا . وفى دقائق قليلة كشفت لى عن أفكارها جميعاء تلك التى اختزنتها فى مطبخها الهادىء طوال غيبتى . قالت إنه يجب أن يفرض على الطبيب الزواج من كليوباترا . يتم ذلك بأن نخيفه قليلا ؛ فيرسل إلى الأسقف التماسا مجودا فيلغى الأسقف زواجه الأول . وينبغى أن أبيع دوبشنيا دون أن أخبر زوجتى بذلك . ثم أضع النقود فى المصرف باسمى . وقالت انه إذا ذهبت أنا وأختى نضرع إلى أبينا ونسأله فى رفق أن يصفح عنا ، فقد يصفح . ولنصلِّ للعذراء ونتوسل علّها أن تشفع لنا . قالت وقد سمعنا سعلة أبى :

— والآن يا سيدى ، اذهب وتكلم معه. اذهب . تكلم معه ، واسأله المغفرة ؛ إنه لن يقطع رأسك .

فدخلت ؛ وكان أبى جالساً الى مكتبه يعمل فى تصميم جوسق ذى نوافذ غوطية . وبرج قصير غليظ . مثل مرقب محطة الحريق — رسم جامد خال من كل فن . ولم أ كن أدرك لمَ قدمت على أبى . ولـكنى أذكر أنى حين رأيت وجهه النحيل ؛ وعنقه الأحمر . وظله على الجدار أردت أن أعانقه وأن أطلب صفحه متذللا كما أشارت على أ كسينيا

ولكن منعني من ذلك مرأى الجوسق بنوافذه الغوطية و رجه القصير الغليظ . قلت :

— مساء الخير .

فلم يكد يلمحني حتى عاد ينظر فى رسمه . ثم سأل بعد قليل :

— ماذا تريد؟

قلت بغباء :

— جئت أخبرك أن أختى مريضة جداً . إنها تموت .

فتنهد أبى ؛ ونزع منظاره عن عينيه ووضعه على المنضدة وقال :

— وإذن ؟ كما بذرت فاتحصد . أريدك أن تذكر كيف أتيت إلى منذ عامين ، فطلبت اليك فى هذا المكان نفسه أن تتخلى عن معتقداتك الفاسدة . وذكرتك بشرفك وواجبك والتزاماتك نحو أجدادك الذين ينبغى أن تقدس تقاليدهم . فهل أصغيت إلى؟ لقد نبذت نصائحى وتشبثت بأفكارك الخبيثة . ثم إنك غررت بأختك الى طريقك البغيض . فجلبت لها السقوط والعار . أنتما الآن تشقيان بذنبكما . وكما بذرتما فلتحصدا .

كان يذهب ويجىء فى الغرفة وهو يتكلم . ولعله كان يظن أنى إنما جئت لأقر له بالخطأ . ولعله كان ينتظر منى أن أطلب منه العون لى ولأختى . كان المكان باردا وأنا أرجف كالمحموم . وأتكلم فى صوت أجش وفى صعوبة . قلت :

— ثم أنى يجب أن أذكرك أنى فى هذا الموضع بعينه قد رجوتك

أن تفهمني ، وأن تتأمل وتفكر في غايتنا من الحياة وفي هدفنا ، فكان جوابك، أن تتكلم عن أجدادنا وعن جدي الأكبر الذي كان ينظم شعراً . والآن تعلم أن ابنتك الوحيدة مشرفة على الموت ولكنك تتحدث أيضاً عن الأجداد والتقاليد . رستطيع أن تحتفظ بهذا النزق والموت قريب منك . وحياتك لن تطول أكثر من خمس سنوات أو عشر .

سأل أبي في حزم وقد أثاره أن أصمه بالنزق

— لمَ أتيت الى هنا ؟

— لا اعلم . ولكني احبك ولا استطيع ان اعبر عن اسفي لافتراقنا. ولذلك قد جئت . فأنا لازلت أحبك ولكن أختي قد قطعت علاقتها بك وهي لا تصفح عنك ، لن تصفح . ان اسمك وحده يملؤها بالحقد على حياتها الماضية . فصاح ابي :

— ومن الملوم ؟ انت . انت يا وغد . قلت :

—أجل . انى انا الملوم وانا خايف اللوم على أشياء كثيرة . ولكن لمَ كانت حياتك التي حاولت أن تفرضها علينا غبية جامدة عارية عن كل موهبة ؟ لم لم اجد بين اولئك الناس الذين قضيت الثلاثين عاما الفائتة تبني لهم المنازل . رجلا واحداً يهديني الى طريق الحياة الحق . فأتجنب هذا العذاب ؟ ليس في هذه المدينة رجل شريف واحد . ومنازلك هذه حظائر ملعونة ينكل فيها بالأمهات والبنات ويعذب فيها الأبناء . يالأمي البائسة ! يا لأختي التعسة ! ان المرء ليحتاج ان يخدر نفسه بالفودكا ، والورق .

والغيبة ، والملق ، والرياء ، ويقضي الأعوام يرسم منـازل عفنة — حتى يحجب عن عينيه كل الشقاء الذى تنطوى عليه تلك المنازل ، لقدوجدت مدينتنا منذ مئات السنين،ولـكنها لم تقدم للوطن على مدى ذلك الزمن رجلا نافعاً واحداً ، واحداً . لقد خنقتم كل شيء حي مرح وهو ما يزال جنيناً . هذه مدينة أصحاب حوانيت وفنادق ، وكتبة ، ومرائين ، مدينة لا تعيش لغاية . مدينة فاسدة . لن يضير أحدا أن تمحق من الوجود محقاً .

قال أبي وهو يتناول مسطرة من مكتبه :

— لا أريد أن أسمعك يا وغد ، انت سكران ، أتجرؤ ان تجيء الى حضرة ابيك فى مثل هذه الحال ؟ اعلم آخر الأمر ولتعلم اختك الفاجرة انكما لن تنالا منى شيئاً . فقد قطعت ما بينى وبين ولدى العاقين . فإذا جلب العقوق والعناد الآن عليهما الشقاء فأنا لا أحس نحوهما برحمة . عد من حيث أتيت.قد شاء ربى أن يعذبنى بكما . ولـكنى أتحمل هذه المحنة صابرا كما صبر أيوب . وأتعزى مثله بألمى وعملى المتصل. ولن تخطو عتبة دارى حتى تصلح من امرك . فأنا رجل عادل.وكل ما انصح به عملى سليم فاذا كنت تبغي لنفسك الخير فلتذكر ما قلته لك وما اقوله الآن .

خرجت مستسلما . ولست اذكر ماحدث لى فى تلك الليلة ، ولا فى اليوم التالى . ولكنهم يقولون انى كنت أسير فى الطريق مترنحا دون قبعة . وأنا أغنى بصوت عال ، يتصايح خلفى جماعة من الصبية الصغار :

— النفع القليل ، النفع القليل !

- ٣٠ -

لو أني أوصيت بصنع خاتم لجعلتهم ينقشون عليه : «لاشيء يمضى» . فأنا أعتقد أن لاشيء يمضى دون أن يترك أثرا ما ، وأن كل خطوة صغيرة تنطوى على معنى لحاضر الحياة أو مستقبلها .

لم يذهب ما مررت به فى حياتي سدى . فأحزانى الكبيرة ، وصبرى ؛ قد حركت قلوب الناس فى المدينة فلم يعد أحد يسمينى « النفع القليل » . ولم يعد أحد يضحك منى ، أو يرمى عَلَىَّ الماء حين أجتاز السوق . لقد اعتادوا أن يروني عاملا ، ولم يعودوا يجدون غرابة فى أن أحمل دلاء الطلاء وأضع الزجاج فى النوافذ . وقد أصبحت أعتبر صانعاً ماهراً ، ومقاولا لا يتقدم عليه سوى راديش . الذى استرد عافيته وعاد يطلى قباب الكنيسة دون سقالة . ولكنه لم يعد من القوة بحيث يرأس الرجال ، فأخذت مكانه . وصرت أطوف بالمدينة أتصيد الصفقات ، وأستأجر العمال وأطردهم ، وأستدين بربح باهظ . وأصبحت الآن -- وأنا مقاول -- أدرك كيف يقضى المرء أحياناً أياما ثلاثة فى البحث عن صفقة صغيرة أو عن عمل .

أصبح الناس يتطلفون معى ، ويخاطبوننى باحترام ؛ ويقدمون لى الشاى في منازلهم حيث أعمل . ويبعثون إلى بالخادم يسألون هل أطلب غذاء ؟ وكثيراً ما يأتى الصبيان والبنات يراقبوننى بأعين مشوقة حزينة وحدث مرة أن كنت أعمل فى حديقة المحافظ . أطلى رخام البيت

الصيف ، فجاء المحافظ . ولما لم يكن لديه مايعمله فقد بدأ يحادثني . ذكّرته كيف أرسل إلى مرة يحذرني . ولكنه بقي لحظة يحدق في وجهي ، وفتح فمه مثل دائرة . ولوح بيديه وقال : لا أذكر .

أدركتني السن ، فأصبحت صموتاً حزيناً رزيناً . قل أن أضحك . ويقال إني غدوت مثل راديش ، وأصبحت مثله أثقل على الناس بآرائي الخلقية التي لا تفضي إلى شيء .

أما ماريا فيكتوروفنا ، زوجتي السابقة ، فتعيش في الخارج . في حين يبنى أبوها خطا حديديا ببعض المقاطعات الشرقيـــة ويشترى أرضا هناك .

والطبيب بلاجوفو في الخارج أيضا . وقد عادت دوبشنيا إلى السيدة شيرا كوف بعد أن احتال على المهندس . فتنازل لها عن خمس القيمة . وأصبح مويسّى يمشى بهيئة عريضة . ويكثر أن يذهب إلى المدينة في عربة . ينزل منها عند المصرف . ويقال إنه قد اشترى أخيرا ضيعة مرتهنة . ولا يزال يتساءل في المصرف عن دويشنيا لأنه يريد أن يشتريها أيضا .

أما إيفان شيرا كوف التعس فقد اعتاد أن يتسكع في المدينة لا يعمل شيئا . ويسرف في الشراب . وقد حاولت أن أستخدمه في عملنا ، فقضى وقتا معنا يطلى السقوف ويضع الزجاج . وكاد العمل يشغفه . وأصبح كما يكون النقاش دائما ، يسرق الزيت ويطلب المنح ويسكر . ولكنه

ثم بعد قليل . وثقل عليه العمل . فعاد إلى دوبشديا . ثم علمت من بعض الفلاحين أنه كان يحرضهم على أن يقتلوا مويسى ذات ليلة وينهبوا السيدة شبرا كوف .

أما أبي فقد تقدمت به السن ، وانحنى ، ولم يعد يقوى على أكثر من أن يخرج كل مساء يتمشى قريبا من منزله .

وحين تفشت بيننا الكوليرا كان پروكوفى يشو أصحاب الحوانيت بالكونياك والقار . ويأخذ منهم نقودا لقاء ذلك . وقد جلد — كما قرأت فى الجرائد — لأنه كان يجلس فى دكانه ويشهر بالأطباء . وقد مات صبيه نيكولكا بالكوليرا . ولا زالت كاربوفنا باقية . ولازالت تحب پروكوفى وتخشاه . وكلما رأتنى هزت رأسها آسفة وقالت متنهدة :

— يا عزيزى التعس ! أنت متى ضائع . ضائع .

أنا أعمل طوال الأسبوع . من البكور حتى وقت متأخر من الليل . وأخرج أيام الآحاد والعطلات مع ابنة أختى الصغيرة - فقد توقعت أختى صبيا ولكنها ولدت طفلة — وأذهب معها إلى المقبرة ، حيث أقف أو أجلس . أنظر إلى قبر أختى العزيزة . وأقول للطفلة إن أمها ترقد هناك .

وكثيرا ما أجد أبيونا بلاجوفو إلى جوار القبر . فنتبادل التحية ونقف صامتين . أو نتحدث عن كليوباترا . وعن الطفلة . وعن شقاء هذه الدنيا . ثم نترك المقبرة ونمشى فى صمت . فتتثاقل فى مشيتها حتى

تطيل من لقائنا ، وتمرح الطفلة الصغيرة فى سعادة ، وقد كسرت عينيها تتقى الشمس المشرقة ، وتمد إلينا يديها ، فنقف ونشترك معا فى مداعبة تلك البُنية الحلوة .

وحين نبلغ المدينة ، تحيينى أنيوتا بلاجوفو مضطربة خجلة ، وتتابع المشى وحدها حزينة محاذرة ... ولم يكن لأحد المارة إذا نظر إليها أن يتخيل أنها كانت منذ قليل تسير إلى جانبى بل تداعب الطفلة ؟

السر محمود الشنيطى

أصدقاء الأدب الروسى